

التوكل

على الله تعالى

إعداد

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي



التوكل

على الله تعالى

إعداد

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي



يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعــــــهِ * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعـــــذرُ
واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ
فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لــــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجــــدرُ
ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى * كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعـــــذِّرُ[1]

(1) عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد".


الله
بسم الله الرحمن الرحيم





{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}[آل عمران: 173 – 174].

مقدِّمةٌ

إنَّ الحمدَ للهِ نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنفسنَا ومنْ سيّئاتَ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلَا مضلَّ لهُ ومنْ يضللْ فلَا هاديَ لهُ، وأشهدُ أنَّ لَا إلَهَ إلَّا اللهُ وحدهُ لَا شريكَ لهُ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولهُ ﷺ.

{يَا أَيُّهَا الذّينَ ءَامَنُوا اتَّقوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}[آل عمرن: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَذِي خَلَقكُمْ مَنْ نَّفسٍ وَّاحدةٍ وَّخلق مِنْهَا زَوْجَهَا وَبثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كثيرًا وَّنِسَاءً وَّاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَائَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[النّساء: 1].

{يَا أَيَّهَا الذَينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَولاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوزًا عَظِيمًا}[الاحزاب: 71].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ، وخيرُ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشرُّ الأمورِ محدثاتهَا، وكلَّ محدثةٍ بدعةٍ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

وبعد:

فقدْ ذكرَ اللهُ تعالَى التوكُّلَ فِي كتابهِ الكريمِ فِي كثيرٍ منَ المواضعِ في القرآن، وأمرَ بهِ وأثنَى علَى المتوكِّلينَ، فقالَ سبحانهُ آمرًا للمسلمينَ بالتوَّكُلِ:

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[المائدة: 11].

وقالَ جلَّ جلالهُ: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}[التوبة: 129].

وقالَ جلَّ منْ قائلٍ: {وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ * فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[يونس: 84، 85].

وقالَ تعالَى مثنيًا علَى أهلِ التوكُّلِ وآمرًا لهُ بهِ:

{فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: **159، 160**].

وقالَ سبحانهُ وتعالَى فِي بابِ الثَّناءِ علَى المتوكِّلينَ:

{الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}[آل عمران: **173 – 174**].

وقالَ تعالَى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الأنفال: **2**].

ولطالما يريد المسلمُ أن يعرف معنى التوكُّل؟ وكيف يتوكَّل على الله تعالى؟

في هذا البحث نجد الإجابات على كل تلك الأسئلة.

وكتب

الدكتور عصام الدين إبراهيم النُّقيلي

{تعريف التوكُّل}

التوكُّلُ لغةً:

منْ الجِّذرِ "و ك ل" وأصلهَا: اعتمادكَ علَى غيركَ[1]، تقولُ: وكَّلتهُ إليكَ أَكِلُهُ كَلَةً، أي: فوَّضتهُ، ورجلٌ وكِلٌ ووكِلةٌ وهوَ المواكلُ يعتمدُ علَى غيرهِ فيضيعُ أمرهُ، وتقولُ: وكلتُ باللهِ، وتوكّلتُ علَى اللهِ، ووكلتُ فلانًا إلَى اللهِ، أكِلهُ إليهِ، والوكيلُ: فعلهُ التّوكّلُ، والتوكّلُ إظهارُ العجزِ والاعتمادُ علَى غيركَ، وكذلكَ يعنِي "التُكلانُ" الذِي انقلبتْ تاؤهُ عنْ واوٍ، ومصدرُ التوكُّلِ الوكالةُ[2]، قالَ ابنُ منظورٍ: يقالُ:توكّلَ بالأمرِ إذَا ضمنَ القيامَ بهِ، ووكَّلتُ أمرِي إلَى فلانٍ أي ألجأتهُ إليهِ واعتمدتُ فيهِ عليهِ، ووكّلَ فلانٌ فلانًا إذا استكفاهُ أمرهُ؛ ثقةً بكفايتهِ، أو عجزًا عنِ القيامِ بأمرِ نفسهِ[3].

التوكُّلُ اصطلاحًا:

غلبَ استخدامُ مصطلحِ التوكُّلِ فِي توكُّلِ العبدِ علَى ربِّهِ تعالَى؛ لذَا عرَّفهُ العلماءُ أنَّهُ: الثِّقةُ بمَا عندَ اللهِ تعالَى، واليأسُ عمَّا فِي أيدِي النَّاسِ[4]، وقالَ الرَّازِي: التوكُّلُ هوَ أنْ يراعِي الإنسانُ الأسبابَ الظَّاهرةَ، ولكنْ لَا يعوِّل بقلبهِ عليهَا، بلْ يعولُ علَى

---

(1) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٣٦/٦.

(2) انظر: العين، الفراهيدي ٤٠٥/٥، مختار الصحاح، الرازي ٣٤٤/١.

(3) لسان العرب ٧٣٤/١١.

(4) التعريفات، الجرجاني ٧٠/١.

عصمةِ الحقِّ[1]، وأضافَ النّسفِي أنَّ التوكُّلَ هوَ: قطعُ العلائقِ وتركُ التملُّقِ للخلائقِ[2]، وقالَ ابنُ عاشورٍ:هوَ انفعالٌ قلبيٌّ عقليٌّ يتوجّهُ بِهِ الفاعلُ إِلَى اللهِ تعالَى؛ راجيًا الإعانةَ، ومستعيذًا منَ الخيبةِ والعوائقِ[3].

وقدْ نخلصُ منَ المعانِي السَّابقةِ إِلَى أنَّ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى هو: تفويضُ كلِّ الأمورِ الظَّاهرةِ والباطنةِ إِلَى اللهِ تعالَى، معَ الثِّقةِ التامَّةِ في قدرتِهِ سبحانهُ علَى جلبِ النَّفعِ ودفعِ الضرِّ.

والمتأمِّلُ فِي التَّعريفينِ اللُّغوِي والاصطلاحِي يجدُ توافقًا واضحًا بينهمَا، فالتوكُّلُ لغةً هوَ تفويضُ الأمرِ والاعتمادُ علَى الآخرِ معَ الثِّقةِ، والمعنَى الاصطلاحِي يتضمَّنُ تفويضَ الأمرِ للهِ تعالَى، والاعتمادِ عليهِ وحدهُ فِي تسييرِ الأمورِ؛ ثقةً بقدرتِهِ الكاملةِ عزَّ وجلَّ.

---

(1) مفاتيح الغيب ٩/٤١٠.
(2) مدارك التنزيل ١/٤٣٩.
(3) التحرير والتنوير ٤/١٥١.

{التوكُّلُ فِي الاستعمالِ القرآنِي}

وردتْ مادَّةُ "وكل" فِي القرآنِ سبعينَ مرَّةً[1].

والتوكُّلُ هوَ: الاعتمادُ علَى الغيرِ وتفويضُ الأمورِ لهُ، ولمْ يخرجْ فِي الاستعمالِ القرآنِي عنْ هذَا المعنَى[2].

ألفاظٌ ذاتُ صلةٍ:

الثِّقةُ:

الثِّقةُ لغةً:

الائتمانُ[3].

الثِّقةُ اصطلاحًا:

منْ يعتمدُ عليهِ فِي القولِ والفعلِ[4].

الصِّلةُ بينَ الثِّقةِ والتوكُّلِ:

يوجدُ تكاملٌ كبيرٌ فِي المفردتينِ، فلَا يمكنُ أنْ يتوكَّلَ الإنسانُ إلَّا علَى منْ يثقُ بهِ ويأتمنهُ علَى القيامِ بالأمرِ.

---

(1) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٧٦٢-٧٦٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٤٢٥-١٤٥٣.

(2) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٣٣٦/٤-٣٣٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢٦٦/٥-٢٧٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص٦٠٧-٦٠٨.

(3) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤٥٠/٢٦.

(4) التوقيف، المناوي ١١٦/١.

الاعتمادُ:

الاعتمادُ لغةً:

اعتمدَ علَى الشَّيءِ اتَّكأَ، واعتمدَ عليهِ فِي كذَا اتَّكلَ، ويقالُ: اعتمدَ الشّيءَ: قصدهُ وأمضاهُ، ويقالُ:اعتمدَ الرَّئيسُ الأمرَ: وافقَ عليهِ وأمرَ بإنفاذهِ[1].

الاعتمادُ اصطلاحًا:

هوَ: القصدُ إلَى الشَّيءِ والاستنادُ إليهِ معَ حسنِ الرُّكونِ[2].

الصِّلةُ بينَ الاعتمادِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متقاربتانِ؛ لأنَّ فِي كلتيهمَا استنادًا إلَى المعتمَدِ عليهِ معَ حسنِ الرُّكونِ والاطمئنانِ.

التَّواكلُ:

التَّواكلُ لغةً:

تواكلَ القومُ: اتَّكلَ بعضهمْ علَى بعضٍ[3].

التَّواكلُ اصطلاحًا:

هوَ التَّخاذلُ وتركِ العملِ بالأسبابِ، وانتظارِ الأمانِي[4].

---

(1) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/٣٠٢، مختار الصحاح، الرازي، ١/٢١٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/٦٢٦.

(2) الكليات، الكفوي ١/١٥١.

(3) العين، الفراهيدي ٢/٢٦٦.

(4) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٤/١٤٢.

الصِّلةُ بينَ التَّواكلِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متضادَّتانِ كلَّ التَّضادِ، فالتوكُّلُ هوَ عملُ الجوارحِ معَ توكُّلِ القلبِ، أمَّا الكسلُ عنِ الأخذِ بالأسبابِ معَ الادِّعاءِ بالتوكُّلِ هوَ حقيقةُ التَّواكلِ.

التَّفويضُ:

التَّفويضُ لغةً:

فوَّضَ إليهِ الأمرَ تفويضًا: ردَّهُ إليهِ، وجعلهُ الحاكمَ فيهِ[1].

التَّفويضُ اصطلاحًا:

هوَ: ردّ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى والتبرُّؤ منَ الحولِ والقوَّةِ[2].

الصِّلةُ بينَ التَّفويضِ والتوكُّلِ:

المفردتانِ متقاربتانِ، فالتَّفويضُ والتوكُّلُ يشتركانِ فِي ردِّ الأمورِ إلَى الآخرِ فيمَا لَا تستطيعهُ قدرةُ الشَّخصِ.

---

(1) تاج العروس، الزبيدي ١٨/٤٩٦.

(2) التوقيف، المناوي ١/١٠٤.

{دلالةُ اقترانِ التوكُّلِ بالإيمانِ والعبادةِ}

التوكُّلُ منْ أعظمِ العباداتِ المرتبطةِ بالإيمانِ؛ لذلكَ كثُرَ اقترانهُ بمصطلحيْ «العبادةِ» و«الإيمانِ»، فالتوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى هوَ أجمعُ أنواعِ العبادةِ، وأعلَى مقاماتِ التَّوحيدِ وأعظمهَا وأجلِّهَا؛ لمَا ينشأُ عنهُ منَ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فإنَّهُ إذَا اعتمدَ علَى اللهِ تعالَى فِي جميعِ أمورهِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ دونَ كلِّ مَا سواهُ؛ صحَّ إخلاصهُ ومعاملتهُ معَ اللهِ تعالَى، وكذلكَ لَا يصحُّ إيمانُ الإنسانِ إذَا فسدَ توكُّلهُ، فالتوكُّلُ شرطٌ فِي الإيمانِ[1]، بدلالةِ قولِ اللهِ تعالَى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[المائدة: 23].

والصَّحيحُ أنَّ عدمَ التوكُّلِ لَا يُفسدُ الإيمانَ بلْ يُنقِصهُ إلَّا إذَا توكَّلَ علَى غيرِ اللهِ تعالَى فِي لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى فهذَا قدِ انتقضَ إيمانه وسيأتِي تفصيلهُ، وكذلكَ التوكُّلُ فهوَ شرطُ كمالٍ لَا شرطُ صحَّةٍ، وإنْ قلنَا بمَا سبقَ فإنَّ منْ لمْ يتوكَّلْ علَى اللهِ تعالَى فِي حالٍ منَ الأحوالِ نُزِعَ عنهُ الإيمانُ؟ وهذَا غيرُ صحيحٍ لأنَّ المسلمَ لَا يخلُو منْ خللٍ، فلابدَّ أنْ يفقدَ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالى مرَّةً إنْ لمْ تكنْ مرَّاتٍ، وبذلكَ ينقصُ إيمانهُ ولَا يفسدُ، واللهُ أعلمُ.

وبمَا قلتُ أشارَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ الآيةِ السَّابقةِ: ودلَّ هذَا علَى وجوبِ التوكُّلِ، وعلَى أنَّهُ بحسبِ إيمانِ العبدِ يكونُ توكُّلهُ[2].

---

(1) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح الفوزان ١/٧٨.

(2) تفسير السعدي.

وبمَا يُقاربهُ قالَ ابنُ عاشورٍ: أيْ علَى اللهِ وحدهُ اعتمدُوا وثقُوا، فهوَ وكيلكمْ الأعلمُ بمَا يصلحُ لكمْ إنْ كنتمْ مؤمنينَ، وإنْ لمْ تكونُوا متوكِّلينَ فلنْ ينطبقَ عليكمْ سمتُ المؤمنينَ(1).

وفي موضع آخر قال جل وعلا: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}[يونس: 84].

قالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى وقالَ موسَى يَا قومِ إنْ كنتمْ آمنتمْ أيْ صدَّقتمْ باللهِ فعليهِ توكَّلُوا أيِ اعتمدُوا إنْ كنتمْ مسلمينَ كرَّرَ الشَّرطَ تأكيدًا، وبيَّنَ أنَّ كمالَ الإيمانِ بتفويضِ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى(2).

وخرجنَا منْ هذَا أنَّ التوكُّلَ شرطٌ فِي الإيمانِ، إلَّا أنَّهُ شرطُ كمالٍ لَا شرطُ صحَّةٍ.

وقدْ قُرِنَ التوكُّلُ بالعبادةِ فِي أكثرِ منْ موضعٍ، منهَا قولُ اللهِ تعالَى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ}[هود: 123].

وقدْ بيّنَ الرَّازِي أنَّ أوَّلَ درجاتِ السَّيرِ إلَى اللهِ تعالَى هوَ عبوديَّةُ اللهِ تعالَى، وآخرهَا التوكُّلُ علَى اللهِ (وحدهُ)، وأنَّ هذَا هوَ السَّببُ الذِي أدّى إلَى ترتيبَ الآيةِ هكذَا: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)، بمعنَى أنَّ المخلصَ فِي العبادةِ المؤدِّي لهَا بيقينٍ وتأمُّلٍ وصفاءٍ يصلُ بهِ التدبُّرُ إلَى عظمِ الخالقِ عزَّ وجلَّ وروعةِ إبداعهِ،

---

(1) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/٢٠٣.

(2) انظر: تفسير القرطبي.

وأنَّهُ لَا يملكُ أمامَ تلكَ القدرةِ المطلقةِ سوَى تفويضِ أمورِهِ كلِّهَا والاعتمادِ عليهِ تعالَى فِي تسييرِ شؤونِ حياتهِ كلِّهَا[1].

ولعلَّ ترتيبَ الآيةِ السَّابقةِ يؤكِّدُ علَى مبدئِ العبادةِ والعملِ، ومنْ ثمّ تفويضُ الأمورِ للهِ تعالَى، وهذَا هوَ التوكُّل الصَّحيحُ، خلافًا لمَا يفعلهُ المتواكلونَ منَ القعودِ عنِ العملِ، وتركِ الأمورِ بحجَّةِ التَّفويضِ، وإسنادِ الأمورِ للخالقِ عزَّ وجلَّ، فاللهُ تعالَى يحبُّ العاملينَ ولَا يحبُّ المتخاذلينَ.

التوكُّل فِي حقِّ اللهِ تعالَى:

فممَّا لهُ أنْ يُعلمَ أنَّ منْ أسماءِ اللهِ تعالَى "الوكيلُ"، وقدْ حقّ لجلالهِ وعزَّتهِ وحكمتهِ هذَا الاسمُ، فعليهِ يجبُ أنْ يتوكَّلَ المؤمنونَ، وعلَى غيرِهِ لَا يصحُّ التوكُّلُ؛ لأنَّ التوكُّلَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، لَا تُصرفُ إلَّا للهِ عزَّ وجلَّ[2]، ودونكمْ بيانُ معنَى اسمِ اللهِ الوكيلِ واستحقاقهِ جلَّ وعلَا لهذَا الاسمِ:

أوَّلًا: الوكيلُ منْ أسماءِ اللهِ الحسنَى:

أثبتَ اللهُ تعالَى لنفسهِ اسمَ الوكيلِ، يقولُ الحقُّ تعالَى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[الزمر: 62].

وقالَ تعالَى فِي موضعٍ آخرَ: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران: 173].

---

(1) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/٤١٤.

(2) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ١/١٣٧.

والوكيلُ هوَ المتكفِّلُ باحتياجاتِ عبادهِ، وقيلَ: الموكولُ إليهِ ذلكَ، فإنَّ عبادهُ وكّلُوا إليهِ مصالحهمُ اعتمادًا علَى إحسانهِ عزَّ وجلَّ[1].

يقولُ الطُّوسِي: الوكيلُ: هوَ الموكولُ إليهِ الأمورُ، ولكنَّ الموكولَ إليهِ ينقسمُ إلَى منْ يوكَلُ إليهِ بعضُ الأمورِ، وذلكَ ناقصٌ، وإلَى منْ يوكَلُ إليهِ الكلُّ، وليسَ ذلكَ إلَّا اللهُ سبحانهُ وتعالَى، والموكولُ إليهِ ينقسمُ إلَى: منْ يستحقُّ أنْ يكونَ موكولًا إليهِ لا بذاتهِ ولكنْ بالتَّفويضِ والتَّوكيلِ، وهذَا ناقصٌ؛ لأنَّهُ فقيرٌ إلَى التَّفويضِ والتَّوليَةِ، وإلَى منْ يستحقُّ بذاتهِ أنْ تكونَ الأمورُ موكولةً إليهِ، والقلوبُ متوكِّلةٌ عليهِ لَا بتوليَةٍ وتفويضٍ منْ جهةِ غيرهِ، وذلكَ هوَ الوكيلُ المطلقُ، والوكيلُ أيضًا ينقسمُ إلَى: منْ يفِي بمَا وكّلَ إليهِ وفاءً تامًّا منْ غيرِ قصورٍ، وإلَى: منْ لَا يفِي بالجميعِ، والوكيلُ المطلقُ: هوَ الذِي الأمورُ موكولةٌ إليهِ وهوَ مليٌّ بالقيامِ بهَا، وفيٌّ بإتمامهَا، وذلكَ هوَ اللهُ تعالَى[2].

والفرقُ بينَ وكالةِ اللهِ تعالَى ووكالةِ العبادِ:

أولا: أنَّ الوكيلَ صفةُ اللهِ جلَّ جلالهُ التِي تعنِي المتولِّي القائمِ بتدبيرِ (شؤونِ) خلقهِ؛ لأنَّهُ مالكٌ لهمْ رحيمٌ بهمْ، أمَّا توكيلُ العبادِ إنَّمَا يعقدُ بالتَّوكيلِ، ولَا يتضمَّنُ الرَّحمةَ[3]، لذَا حريٌّ بنَا أنْ نتوجَّهَ إلَى اللهِ جلَّ جلالهُ بالدُّعاءِ باسمهِ الوكيلَ، وبجميعِ أسمائهِ الحسنَى، فاللهُ تعالَى حقيقٌ بذلكَ، وقدْ أمرنَا بهذَا فِي قولهِ تعالَى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[الأعراف: 180].

---

(1) انظر: المواقف، الإيجي ٣/٣٢٢.

(2) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٩.

(3) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٥٧٧/١.

وعلَى الإنسانِ أنْ يستحضرَ لحظةَ الدُّعاءِ عزَّةَ الرُّبوبيَّةِّ وذلَّةَ العبوديَّةِ، فبذلكَ يعظمُ الدُّعاءُ ويحسنُ الذكرُ[1].

ثانيًا: استحقاقُ اللهِ تعالَى للتوكُّلِ لاتِّصافهِ بصفاتِ الكمالِ:

للهِ تعالَى منَ الصِّفاتِ المطلقةِ مَا يجعلنَا نسارِعُ إلَى عبادتهِ، ونجتهدُ فِي التوكُّلِ عليهِ، توقًا إلَى رحمتهِ، وحرصًا علَى استحقاقِ جنَّتهِ، فمنْ أهمِّ مَا يجعلُ المؤمنَ يتوكَّلُ علَى ربِّهِ عزَّ وجلَّ:

1) سعةُ علمهِ جلَّ جلالهُ:

إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هوَ العليمُ، وعلمهُ واسعٌ لَا تدركهُ العقولُ، فقدْ أثبتَ العلمَ المطلقَ لنفسهِ تباركَ وتعالَى وقالَ: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[الأنفال: 61].

وأثبتهَا لهُ صفوةُ عبادهِ المؤمنينَ، فقدْ وردتْ علَى لسانِ أنبياءِ اللهِ الكرامِ، كقولِ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهمَا الصَّلاةُ السَّلامُ: {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[البقرة: 127].

وأيضًا أثبت العلم المطلق لله تعالى يعقوب عليه السلام في قوله: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[يوسف: 83].

(1) انظر: مراح لبيد، محمد الجاوي ١/٤٠٩.

وقالَ تعالَى عنْ مريمَ بنةِ عمرانَ: {إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[آل عمران: 35].

والعليمُ يعنِي: أنَّ اللهَ تعالَى يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا، ظاهرهُ وباطنهُ، دقيقهُ وجليلهُ، أوَّلهُ وآخرهُ، عاقبتهُ وفاتحتهُ، فمعلوماتهُ تعالَى لَا نهايةَ لهَا، وكذلكَ وضوحهَا وكشفهَا علَى أتمِّ مَا يمكنُ فيهِ، بحيثُ لَا يتصوَّرُ مشاهدةٌ وكشفٌ أظهرَ منهُ، ثمَّ لَا يكونُ تعالَى مستفيدًا منَ المعلوماتِ، بلْ تكونُ المعلوماتُ مستفادةٌ منهُ، فهوَ تعالَى الذِي يمدّ بالعلمِ منْ يشاءُ(1)، وهذَا العلمُ الإلهِي يجعلنَا نسلّمُ أمورنَا متوكِّلينَ علَى اللهِ تعالَى؛ فنحنُ الجاهلونَ وهوَ الأعلمُ بحالنَا وبمَا يصلحُ لشؤونِ دينِنَا ودنيانَا، وهوَ الرَّاضِي عنَّا بهذَا التوكُّلِ، وهوَ كافينَا مَا أهمّنَا.

2) سعةُ رحمتهِ سبحانهُ:

وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذاتهُ المقدَّسةَ بالرَّحمةِ الواسعةِ، فقدْ قالَ تعالَى: {وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ}[الأعراف: 156].

وقالَ أيضًا: {إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 160].

وتقرَّرتِ الصِّفةُ مرَّةً أخرَى فِي موضعٍ ليسَ ببعيدٍ عنِ الموضعِ السَّابقِ فِي قولهِ تعالَى: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 163].

(1) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الطوسي ص٨٦.

وقدْ أثبتَ صفةَ الرَّحمةِ للهِ تعالَى أنبياءُ اللهِ الكرامُ، فقدْ قالَ تعالَى عنْ موسَى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[البقرة: 54].

وعنْ سليمانَ: {إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ}[النمل: 30].

وأثبتهَا لهُ تعالى نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ فقالَ تعالَى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[الأحقاف: 8].

ورحمةُ اللهِ تعالَى هيَ تفضُّلهُ وكرمهُ علَى المؤمنينَ، فقدْ أوجبَ تعالَى الرَّحمةَ علَى نفسهِ تفضلًا وإحسانًا، ولمْ يوجبهَا عليهِ أحدٌ[1] فِي قولهِ: {كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}[الأنعام: 12].

فهوَ الممتنُّ عليهمْ بعطائهِ الجزيلِ، وهوَ الذِي يتوبُ علَى عبادهِ، يقولُ الطبريُّ: يقولُ تعالَى ذكرهُ: إنَّ هؤلاءِ العادلينَ بِي الجاحدينَ نبوَّتكَ يَا محمَّدُ، إنْ تابُوا وأنابُوا قبلتُ توبتهمْ، وإنِّي قدْ قضيتُ فِي خلقِي: أنَّ رحمتِي وسعتْ كلَّ شيءٍ[2]، ونحنُ نقولُ: إذَا كانتْ هذهِ رحمتهُ بالمعرضينَ عنهُ، فكيفَ

تكونُ رحمتهُ بالمقبلينَ عليهِ، السَّاجدينَ بينَ يديهِ، المتوكِّلينَ عليهِ فِي تسييرِ أمورهمْ، وكيفَ لهمْ ألَّا يتوكَّلُوا إذَا مَا علمُوا عطفهُ علَى عبادهِ ورفقهُ بهمْ، ورحمتهُ فيمَا يقدّرُ لهمْ منْ مقاديرَ!

(1) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص١٠٧.

(2) جامع البيان ١/١٠٧.

3) عزَّتهُ وقوَّتهُ تعالَى:

إنَّ عزاءَ المؤمنِ المظلومِ والمقهورِ فِي هذهِ الدُّنيَا يقينهُ أنَّ اللهَ تعالَى هوَ القويُّ العزيزُ، الذِي لَا تضيعُ عندهُ الحقوقُ ولَا يفلتُ منْ عقابهِ الظالمونَ.

قالَ تعالَى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[هود: 66].

وتتجلَّى قوَّةُ اللهِ وعزتُّهُ تعالَى فِي الآيةِ: كونهُ تعالَى قدْ أوصلَ العذابَ إلَى الكفَّارِ بصالحٍ عليهِ السَّلامُ، وصانَ أهلَ الإيمانِ عنهُ، وهذَا لَا يصحّ إلاّ منَ القادرِ الذِي يقدرُ علَى قهرِ طبائعِ الأشياءِ، فيجعلُ الشّيءَ الواحدَ بالنّسبةِ إلَى إنسانٍ بلاءً وعذابًا، وبالنِّسبةِ إلَى آخرَ راحةً وريحانًا[1].

وقالَ تعالَى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[الشورى: 19].

أي: أنَّ ربَّ العزَّةِ ذُو لطفٍ بعبادهِ مؤمنهِمْ وكافرهِمْ، فهوَ الذِي يطعمهمْ ويسقيهمْ، وحتَّى فِي خلواتِ المعصيةِ يمرّرُ إليهمُ الهواءَ فيحييهمْ، وهوَ تعالَى علَى كرمهِ معهمْ قادرٌ علَى أخذهمْ بقوَّتهِ التامَّةِ؛ فهوَ الذِي لَا يعجزهُ شيءٌ، وهوَ العزيزُ فِي انتقامهِ إذَا أرادَ الانتقامَ منْ أحدٍ[2].

---

(1) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/٥١٧.

(2) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/٦٠٥.

وقدِ ابتلَى اللهُ ابنَ آدمَ بالموتِ؛ ليرَى نتيجةَ عملهِ، واللهُ هوَ العزيزُ المنتقمُ منَ الظالمينَ، القابلِ توبةَ التَّائبينَ[1]: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ}[الملك: 2].

والذِي يفهمُ بحقٍّ معنَى عزَّةِ اللهِ تعالَى وقوَّتهِ، ويدركُ أنَّ اللهَ مقتصٌّ منَ الظَّالمينَ، ناصرٌ للطَّائعينَ عاجلًا كانَ أمْ آجلًا، سيفوّضُ أمورهُ كلَّهَا للهِ تعالَى واثقًا متوكِّلًا موقنًا أنَّهُ لنْ يضيعَ لهُ حقٌّ.

4) حكمتهُ تعالَى:

منْ أسماءِ اللهِ تعالَى: الحكيمُ، فهوَ سبحانهُ صاحبُ الحكمةِ المطلقةِ.

يقولُ عزَّ وجلَّ: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[الأنعام: 18].

قالَ ابنُ القيِّمِ: الحكمةُ: فعلُ مَا ينبغِي، علَى الوجهِ الذِي ينبغِي، فِي الوقتِ الذِي ينبغِي[2].

وقالَ الطُّوسِي: الحكمةُ: هيَ معرفةُ أفضلِ الأشياءِ بأفضلِ العلومِ... ولَا يعرفُ كنهَ معرفتهِ غيرهُ، فهوَ الحكيمُ الحقُّ؛ لأنَّهُ يعلمُ أجلّ الأشياءِ بأجلّ العلومِ، إذْ أجلّ العلومِ هوَ العلمُ الأزليُّ الدَّائمُ الذِي لَا يُتصوَّرُ زوالهُ، المطابقُ للمعلومِ مطابقةً لَا يتطرَّقُ إليهَا خفاءٌ ولَا شبهةٌ، ولَا يتصِّفُ بذلكَ إلَّا علمُ اللهِ سبحانهُ وتعالَى، وقدْ يقالُ لمنْ يحسنُ دقائقَ الصِّناعاتِ ويحكمهَا ويتقنُ صنعتهَا حكيمٌ، وكمالُ ذلكَ أيضًا ليسَ إلَّا للهِ تعالَى، فهوَ الحكيمُ الحقُّ[3].

---

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٥٠٥.

(2) مدارج السالكين ٢/٤٤٩.

(3) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص١٢٠.

وقدْ أثبتتْ آياتُ القرآنِ الكريمِ هذهِ الصِّفةَ للهِ تعالَى، قالَ جلَّ وعلَا علَى لسانِ ملائكتهِ الكرامِ عليهمُ الصَّلاةُ والسّلامُ: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[البقرة: 32].

وقال على لسان يوسف عليه السلام: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[يوسف: 100].

وفِي الآيةِ الأخيرةِ تقريرٌ لحكمةِ اللهِ العليمِ، فقدْ مرَّتْ بيوسفَ عليهِ السَّلامُ ظروفٌ صعبةٌ، ابتداءً منْ إلقائهِ فِي الجبِّ وانتهاءً بسجنهِ واتِّهامهِ ظلمًا، إلَّا أنَّ نبيَّ اللهِ المعصومِ يعلمُ أنَّ ربَّهُ حكيمٌ، يجرِي كلَّ حدثٍ بمرادٍ دقيقٍ، وبمَا تقتضيهِ مصلحةُ الإنسانُ[1]، فإذَا تيقَّنَ المرءُ منْ وجودِ الحكمةِ فِي تقديرِ اللهِ تعالَى وتدبيرهِ، فسيتركُ التفكيرَ، ويقطعَ السعيَ فيمَا ليسَ للبشرِ قدرةٌ عليهِ، وسيفوّضُ أمورهُ كلَّهَا لخالقهِ الحكيمِ العالمِ بمرادِ البشرِ، المتوكِّلِ بمصالحهمْ.

---

(1) انظر: تفسير الشعراوي ١٢/٧٠٨٦.

ثالثًا: نفيُ كمالِ الإيمانِ عنْ غيرِ المتوكِّلِ علَى اللهِ تعالَى:

التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى واجبٌ وشرطٌ لحصولِ كمالِ الإيمانِ، وأمَّا انتفاؤ التوكل بالكليَّةِ انتفاءٌ للإيمانِ بمقتضَى قولِ اللهِ تعالَى[1]: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ}[يونس: 84].

أقسامُ التوَّكُّلِ:

فلأنَّ التوكُّلَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، فلَا يصحُ صرفهُ لغيرِ اللهِ تعالَى، فهذَا ضربٌ منَ الشِّركِ.

وقدْ قسّمَ العلماءُ التوكُّلَ علَى غيرِ اللهِ تعالَى إلَى قسمينِ:

الأوَّلُ: التوكُّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي الأمورِ التِي لَا يقدرُ عليهَا إلَّا اللهُ تعالى:

كالذينَ يتوكَّلونَ علَى الأمواتِ، ويطوفونَ بالقبورِ استشفاءً أو طلبًا للنَّصرِ والرِّزقِ، فهذَا شركٌ أكبرٌ.

الثَّانِي: التوكُّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي الأمورِ التِي يقدرُ عليهَا العبادُ:

كأنْ يتوكَّلَ علَى وزيرٍ أوْ أميرٍ في مَا جعلهُ اللهُ تعالى فِي يدهِ منْ سلطةٍ أوْ وظيفةٍ، فِي جلبِ مصلحةٍ أو دفعِ أذًى، فهذَا ينافِي كمالَ الإيمانِ ويضعفهُ.

والوكالةُ الجائزةُ: هيَ توكيلُ الإنسانِ فِي فعلٍ مقدورٍ عليهِ، ولكنْ ليسَ لهُ أنْ يتوكَّلَ عليهِ، وإنْ وكّلهُ، بلْ يتوكَّلُ علَى اللهِ تعالَى ويعتمدُ عليهِ فِي تيسيرِ مَا وكّلَ صاحبهُ فيهِ[2].

---

(1) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ١٦/٧. بتصرف.

(2) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالوهاب ٤٢٨/١.

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: ومَا رجَا أحدٌ مخلوقًا أوْ توكَّلَ عليهِ إلَّا خابَ ظنَّهُ فيهِ فإنَّهُ مشركٌ[1].

وقدَ قالَ ربُّ العزَّةِ: "حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ"[الحج: 31].

والمشركُ المتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى أوْ فْي مَا يقدرُ عليهِ عبادهُ، يوقعُ اللهُ فِي قلبهِ التعلُّقَ بالمخلوقينَ، فيخافهمْ ويرجوهمْ فيحصلُ لهُ رعبٌ، كمَا قالَ تعالَى: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا}[آل عمران: 151].

والخالصُ منَ الشِّركِ يحصلُ لهُ الأمنُ واطمئنانُ النَّفسِ والتعفُّفِ عنْ سؤالِ النَّاسِ[2].

قالَ تعالَى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}[الأنعام: 82].

ولعلَّ منْ أهمِّ قوادحِ التوكُّلِ التِي نراهَا فِي هذهِ الأيامِ اعتمادُ المسلمينَ علَى الرُّقيةِ لاَ بذاتهَا أنَّهَا كلامُ اللهِ تعالَى، بلْ يعتمدُ فيهَا علَى شخصٍ معيَّنٍ، أوِ العلاجِ علَى يدٍ طبيبٍ بعينهِ اعتقادًا بقدرتهمَا علَى الشِّفاءِ، وهذَا الأمرُ منافٍ للتوكُّلِ الصَّحيحِ الذِي يعتمدُ علَى رجاءِ اللهِ تعالَى أوَّلًا، ثمَّ عملِ مَا يلزمُ بواسطةِ البشرِ معَ عدمِ تعليقِ الأملِ علَى أشخاصهمْ ثانيًا.

---

(1) الفتاوى الكبرى ٢٣٢/٥.

(2) انظر: المصدر السابق ٢٣٢/٥.

{دوافعُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى}

للتَّوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى دافعانِ رئيسانِ، وهمَا: الإيمانُ باللهِ تعالَى، والإيمان بالقدرُ خيرِهِ وشرِّهِ:

أوَّلًا: الإيمانُ باللهِ تعالَى:

التوكُّلُ مبنيٌّ علَى الإيمانِ، لقولِ اللهِ تعالَى: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ}[المائدة: 23].

قالَ ابنُ القيِّمِ: فذكرُ اسمَ الإيمانِ هَاهنَا دونَ سائرِ أسمائهِمْ دليلٌ علَى استدعاءِ الإيمانِ للتوكُّلِ، وإنَّ قوَّةَ التوكُّلِ وضعفهِ بحسبِ قوَّةِ الإيمانِ وضعفهِ، وكلَّمَا قويَ إيمانُ العبدِ كانَ توكُّلهُ أقوَى، وإذَا ضعفَ الإيمانُ ضعفَ التوكُّلُ، وإذَا كانَ التوكُّلُ ضعيفًا، فهوَ دليلٌ علَى ضعفِ الإيمانِ ولَا بدَّ، واللهُ تعالَى يجمعُ بينَ التوكُّلِ والعبادةِ، وبينَ التوكُّلِ والإيمانِ، وبينَ التوكُّلِ والإسلامِ، وبينَ التوكُّلِ والتقوَى، وبينَ التوكُّلِ والهدايةِ[1].

وانتفاءُ التوكُّلِ يعنِي انتفاءٌ الإيمانِ، يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[الأنفال: 2 – 3].

---

(1) طريق الهجرتين وباب السعادتين ١/٢٥٥.

هذَا وقدْ ذهبَ بعضُ العلماءِ إلَى أنَّ الآيةَ تعنِي أنَّ منِ اتَّصفَ بتلكَ الأوصافِ هوَ المؤمنُ كاملُ الإيمانِ، بينمَا منْ لمْ يتَّصفْ بهَا هوَ مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، فلَا ينتفِي عنهُ الإيمانُ بالجملةِ(1)، لكنَّ المتأمِّلَ فِي الآيةِ وفِي معنَى التوكُّلِ يعلمُ أنَّ التوكُّلَ أمرٌ عقديٌّ، لذَا يستبعدُ أنْ يكونَ المتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ تعالَى فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى مؤمنًا إيمانًا ناقصًا، بلْ يرجّحُ انتفاءُ الإيمانِ عنهُ، والمتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ تعالَى فِي مَا يقدرُ عليهِ عبادُهُ هوَ مؤمنٌ ناقصُ الإيمانِ، واللهُ أعلى وأعلم.

ثانيًا: الإيمانُ بالقدرِ:

الإيمانُ بالقدرِ منْ أهمِّ مَا يدفعُ المسلمَ إلَى التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى؛ فالذِي يعلمُ يقينًا أنَّ اللهَ تعالَى قدْ قدّرَ حياتهُ ومعادهُ ورزقهُ وذريَّتهُ وزوجهُ وأمورَ معاشهِ كلَّهَا، لَا يتوانَى فِي تسليمِ أمورهِ كلِّهَا للهِ، ولَا يقلقُ ولَا يجزعُ منَ المستقبلِ، فالذِي خلقهُ هوَ منْ قدّرَ سيرَ حياتهِ، فيعيشُ مطمئنَّ البالِ راضيًا بمَا كتبَ اللهُ لهُ، لَا يلهثُ وراءَ الدُّنيَا ولَا يتكالبُ علَى المناصبِ والأرزاقِ، فاللهُ تعالَى قدْ كتبَ لهُ مقدارًا منَ الخيرِ سيأتيهِ دونَ غيرهِ.

قالَ تعالَى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ * وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/٣٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/٤٩.

فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[النحل: 70 – 72].

وعنْ محمَّدٍ بنِ عمرانَ قالَ: قيلَ لحاتمٍ الأصمِّ: علَى مَا بنيتَ أمركَ هذَا منَ التوكُّلِ؟ قالَ: أربعُ خلالٍ:

– علمتُ أنَّ رزقِي ليسَ يأكلهُ غيرِي، فلستُ أشغلُ بهِ.

– وعلمتُ أنَّ عملِي لَا يعملهُ غيرِي، فأنَا مشغولٌ بهِ.

– وعلمتُ أنَّ الموتَ يأتينِي بغتةً، فأنَا أبادرهُ.

– وعلمتُ أنِّي بِعَيْنِ اللهِ فِي كلِّ حالٍ، فأنَا مستحيٍ منهُ[1].

والتوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى لَا يعنِي تركَ الأسبابِ بحجَّةِ كونِ الأمورِ مقدَّرةٌ عندَ اللهِ، فتركُ الأسبابِ بدعوَى التوكُّلِ لَا يكونُ إلَّا عنْ جهلٍ بالشَّرعِ أوْ فسادٍ فِي العقلِ، فالتوكُّلُ محلُّهُ القلبُ، والعملُ بالأسبابِ محلُّهُ الأعضاءُ والجوارحُ، ولَا يكملُ التَّوكلُ إلَّا بالعملِ، فالمؤمنُ يعملُ ويأخذُ بالأسبابِ ثمَّ يتوكَّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي جلبِ المنفعةِ[2].

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى بأخذِ الأسبابِ فِي كلِّ الأحوالِ، تأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: {فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ}[الملك: 15].

(1) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/١٩٤، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١١/٤٨٤.

(2) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/١٧٠.

فبالرُّغمِ منْ كونِ الرِّزقَ مقدَّرًا إلَّا أنَّنَا مأمورونَ بالسَّعيِ منْ أجلهِ، وبالاجتهادِ فِي استصلاحِ الأرضِ والحصولِ علَى ثرواتِهَا[1].

وانظرْ قولهُ تعالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا}[النساء: 71].

فالحذرُ عملٌ بأسبابِ النَّصرِ، وكذلكَ الاستعدادُ للمعركةِ منْ عواملِ النَّصرِ، قالَ تعالَى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ}[الأنفال: 60].

وفِي الآيةِ: تنبيهٌ إلَى ضرورةِ الاستعدادِ وعدمِ الاتِّكالِ علَى حسنِ النَّوايَا وطيبِ الهدفِ، فيجبُ ألَّا نقصرَ فِي إعدادنَا للقوَّةِ التِي تعيننَا علَى ملاقاةِ الأعداءِ ونبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ جهودنَا وأموالنَا؛ حتَّى نستحقَّ نصرَ اللهِ وتأييدهُ[2]، وتدبَّرْ قولَ يعقوبَ عليهِ السَّلامُ لابنهِ يوسفَ: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}[يوسف: 5].

فقدْ أمرَ يعقوبُ ابنهُ يوسفَ عليهمَا السَّلامُ أنْ يجتنبَ ذكرَ أمرِ الرُّؤيَا أمامَ إخوتهِ، علَى الرُّغمِ منْ فهمهِ ويقينهِ أنَّ اللهَ سيجعلُ ليوسفَ مستقبلًا عظيمًا، إلَّا أنَّ هذَا لَا يمنعُ منْ صيانةِ الإنسانِ لنفسهِ وحفظهِ لأمورهِ منَ الحسدِ والكيدِ[3].

---

(1) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/٢٣٨.

(2) انظر: تفسير الشعراوي ٨/٤٧٧٥.

(3) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/٢٥٢.

{مواطنُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى}

يدخلُ التوكُّلُ فِي تفاصيلِ حياةِ المسلمِ كلِّهَا، فلَا يخلُو سلوكُ المؤمنِ من استحضارِ التوكُّلِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ فِي جميعِ أمورِهِ، ومنْ تلكَ المواطنِ التِي نتوكَّلُ فيهَا علَى اللهِ تعالَى:

أوَّلًا: تحقيقُ المصالحِ ودفعُ المضارِّ:

يمرُّ الإنسانُ فِي حياتهِ بلحظاتٍ يكونُ فيهَا بأمسِّ الحاجةِ إلَى توفيقٍ ربانيٍّ وحفظٍ إلهيٍّ، فالدِّراسةُ للامتحانِ والاجتهادُ وحدهُ ليسَ كافيًا للحصولِ علَى درجةٍ عاليةٍ، أوِ التَّنافسُ علَى وظيفةٍ راقيةٍ، ووجودُ الزَّوجةِ ليسَ ضامنًا لإنجابِ الذريَّةِ، ووجودُ الذريَّةِ ليسَ مؤشرًا علَى الرَّاحةِ عندَ الكبرِ، وكلُّ مَا يفعلهُ الإنسانُ من اجتهاداتٍ لَا يغيِّرُ شيئًا؛ لوْ لمْ يقترنْ بحفظِ اللهِ تعالَى ونصرِهِ وتسديدِهِ.

يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: {إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: 160].

وفِي الآيةِ: خطابٌ للمؤمنينَ أنَّهُ إنْ ينصركمْ اللهُ ويثبِّتكمْ ويوفِّقكمْ فلنْ يستطيعَ أحدٌ خذلانكمْ أوْ مضرَّتكمْ، وإنْ تركَ اللهُ نصرتكمْ فلنْ يستطيعَ أحدٌ نفعكمْ، فتوكَّلُوا علَى ربِّكمْ وثقُوا بنصرهِ، وفوِّضُوا جميعَ أموركمْ إليهِ؛ حتَّى تنالُوا إسنادهُ وتوفيقهُ ونصرتهُ[1].

(1) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/١١٦٢.

قالَ الرَّاغبُ الأصفهانِي: إنَّ حصلَ لكمْ النُّصرةُ فلَا تعتدّوا مَا يعرضُ منَ العوارضِ الدنيويَّةِ فِي بعضِ الأحوالِ غلبةً، وإنْ خذلكمْ فِي ذلكَ فلَا تعتدّوا مَا يحصلُ لكمْ منَ القهرِ فِي الدُّنيَا نصرةً، فالنُّصرةُ والخذلانُ معتبرانِ بالمآلِ[1].

وفِي السنَّةِ النبويَّةِ مَا يدلُّ علَى دوامِ توكلِّ النبيِّ ﷺ قولًا وفعلًا، منْ ذلكَ مَا وردَ عنِ ابنِ عباسٍ: "كانَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذَا قامَ منَ اللَّيلِ يتهجدُ، قالَ: اللهمَّ لكَ الحمدُ، أنتَ نورُ السَّمواتِ والأرضِ ومنْ فيهنَّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ قيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومنْ فيهنَّ، ولكَ الحمدُ، أنتَ الحقُّ، ووعدكَ حقٌ، وقولكَ حقٌ، ولقاؤكَ حقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حقٌّ، والسَّاعةُ حقٌّ، والنبيونَ حقٌّ، ومحمَّدٌ حقٌّ، اللهمَّ لكَ أسلمتُ، وعليكَ توكَّلتُ، وبكَ آمنتُ، وإليكَ أنبتُ، وبكَ خاصمتُ، وإليكَ حاكمتُ، فاغفرْ لِي مَا قدَّمتُ ومَا أخَّرتُ، ومَا أسررتُ ومَا أعلنتُ، أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ، لَا إلهَ إلَّا أنتَ، أوْ قالَ: لَا إلهَ غيركَ[2].

فدعاؤهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ دليلٌ علَى توكُّلهِ القوليِّ، واجتهادهِ فِي التنبُّهِ ليلًا والتوجُّهِ إلَى اللهِ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ والرَّجاءِ علَى الرُّغمِ منْ كونهِ نبيُّ هذهِ الأمَّةِ، وأوُّلُ منْ يدخلُ الجنَّةَ علَى الإطلاقِ؛ دليلٌ علَى أهميَّةِ العملِ لأجلِ طاعةِ اللهِ ولاستحقاقِ رحمتهِ وجنَّتهِ، هذَا إلَى جانبِ مواقفهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التِي يصعبُ عدّهَا والتِي جسّدَ لنَا فيهَا القدوةَ الرَّائعةَ للتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى.

(1) تفسير الراغب الأصفهاني ٩٥٥/٣.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل ٧٠/٨، رقم ٦٣١٧.

فعلَى المؤمنِ أنْ يقتدِي برسولهِ الكريمِ ﷺ فِي كلِّ أحوالهِ فهوَ الذِي علّمنَا ألّا ندعَ التوكُّلَ علَى اللهِ فِي كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ؛ فهوَ راحةٌ وطمأنينةٌ واستقرارٌ للرِّضَا فِي قلبِ المؤمنِ، بالإضافةِ إلَى أنَّهُ يعودُ علَى الإنسانِ بالعزَّةِ والاستغناءِ عنِ البشرِ.

قالَ اللهُ تعالَى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق: 3] أي: كافيهِ ومغنيهِ عمَّنْ سواهُ(1).

فيجبُ أنْ نأخذَ بالأسبابِ وكأنَّهَا كلُّ شيءٍ، وينبغِي أنْ نتوكَّلَ علَى اللهِ وكأنَّ الأسبابَ ليستْ بشيءٍ، فكأنَّ الطَّريقَ الصَّحيحَ عنْ يمينهِ وادٍ سحيقٌ، وعنْ يسارهِ وادٌ سحيقٌ، إنْ أخذنَا بالأسبابِ واعتمدنَا عليهَا فقدْ وقعنَا فِي وادِي الشِّركِ، وإنْ لمْ نأخذْ بهَا وقعنَا فِي وادِي المعصيةِ والتَّواكلِ، لكنَّ الموقفَ الأعقلَ والأكملَ أنْ نأخذَ بالأسبابِ؛ لأنَّهَا طريقُ الأهدافِ، ثمَّ نتوكَّلُ علَى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالهُ لَا يمكنُ أنْ يعطِي لهذهِ الأسبابِ فاعليةً إلَّا بمشيئتهِ وقدرتهِ.

ويكفينَا حديثُ عمرُو بنُ أميَّةَ قالَ: قالَ رجُلٌ لِلنَّبيِّ ﷺ: أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ؟ قال: اعقِلْها وتوكَّلْ"(2).

---

(1) انظر: تفسير السمرقندي، ٤٦١/٣.

(2) حديث حسن صحيح ابن حبان.

ثانيًا: الجهادُ فِي سبيلِ اللهِ تعالَى:

التوكُّلُ فِي ميدانِ الجهادِ فِي سبيلِ اللهِ منْ أهمِّ الأمورِ التِي تعودُ علَى المؤمنينَ بالنَّصرِ والتَّوفيقِ، وقدوتنَا فِي ذلكَ نبيُّنَا محمَّدٌ ﷺ صاحبُ السِّيرةِ الزَّاخرةِ بالتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى، وجهادهِ منذُ نزولِ الوحيِ عليهِ وبدئهِ الدَّعوةِ السرِّيةِ، ثمَّ انتقالهِ للدَّعوةِ الجهريَّةِ، فالهجرةِ والحروبِ كلِّهَا تجسيدٌ لهذَا الأدبِ العظيمِ الذِي لَا بدَّ أنْ نحتذيهِ فِي جهادنَا ضدَّ أعداءِ الإسلامِ.

قالَ تعالَى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: 159 – 160].

وانطلاقًا منَ الأمرِ الإلهيِّ بالتوكُّلِ سلكَ النبيُّ ﷺ مسلكَ الثِّقةِ واتِّخاذِ الأسبابِ فِي شؤونِ الجهادِ والهجرةِ.

فقدْ رتَّبَ أمورَ الهجرةِ بشكلٍ دقيقٍ حتَّى يتجنَّبَ اللَّحاقَ بهِ منْ قبلِ المشركينَ، وقدْ حرصَ علَى عدمِ إلحاقِ الأذَى بالمسلمينَ فجعلهمْ يهاجرونَ قبلهُ، وأبقَى معهُ أبَا بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، وأمرهُ بتجهيزِ الدَّوابِ للسَّفرِ، ثمَّ خرجَ خروجَ الواثقِ بربِّهِ المستندِ إلَى الحقِّ، فمرَّ منْ بينِ المشركينَ وهمْ ينتظرونَ رؤيتهُ ليقتلوهُ، فأرادَ اللهُ لعبدهِ المتوكِّلِ النَّصرَ، فأعمَى أبصارهمْ وحفَّهُ برعايتهِ سبحانهُ وتعالَى.

ثمَّ التقَى عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ بحبيبهِ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ، فانطلقَا تحفُّهمَا رعايةُ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، واتَّخذَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ دليلًا خبيرًا ليدلَّهُ علَى الطَّريقِ، كمَا استعانَ بمنْ يمسحُ آثارَ خيلهِ أثناءَ الرِّحلةِ حتَّى لَا يكتشفَ المشركونَ أمرهُ.

وقدْ أطالَ الرِّحلةَ التِي تحتاجُ ثلاثةَ أيَّامٍ إلَى أسبوعٍ؛ تحقيقًا للأمنِ، وتمويهًا للعدوِّ، فأدلجَ إلَى غارِ ثورٍ حتَّى يهدأَ الطَّلبُ وتفترَ الهممُ فِي اقتفاءِ أثرِهِ، فيتمكَّنَ منَ السَّيرِ وهوَ آمنٌ، وطلبَ فِي هذهِ الفترةِ منِ ابنِ أبِي بكرٍ موافاتهُ بأخبارِ المشركينَ أوَّلًا بأوَّلٍ، واختارَ أسماءَ بنتِ أبِي بكرٍ لتزويدهمْ بالغذاءِ؛ فقدْ كانتْ تستعدُّ للمخاضِ ولمْ تكنْ تحرُّكاتهَا لتثيرَ شكوكَ قريشٍ.

ورغمَ بذلهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ للجهدِ فِي التخفِّي إلَّا أنَّ قريشًا وصلتْ إلَى الغارِ! لكنَّ لَا يخشَى منْ وثقَ باللهِ وبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ كلَّ الأسبابِ، فلَا يضيِّعُ اللهُ عملَ المتوكِّلِ العاملِ، فكانَ مطمئنًّا ومثبِّتًا لقلبِ أبِي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ[1].

قالَ تعالَى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ"}[التوبة: 40].

(1) انظر: الهجرة النبوية، محمد السيد الوكيل ١/١٧٩.

فانظرْ إلَى النَّبيِّ الكريمِ القدوةِ الذِي لمْ يركنْ إلَى أنَّهُ رسولٌ منْ ربِّ العالمينَ بعثهُ ليبلِّغَ دينهُ، ولمْ ينتظرْ النُّصرةَ وهوَ قاعدٌ فِي بيتهِ، فالإنسانُ وإنْ سمتْ رسالتهُ وتعلَّقتْ باللهِ تعالَى عليهِ أنْ يبذلَ منْ أجلهَا الأسبابَ؛ حتَّى تتحقَّقَ الغايةُ منهَا.

وفِي حروبهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ معَ المشركينَ نماذجُ كثيرةٌ منْ التوكُّلِ، أهمُّهَا غزوةُ بدرٍ، أولَى الغزواتِ التِي خرجَ فيهَا المسلونَ للقاءِ منْ يفوقهمْ عدَّةً وعتادًا، خرجُوا واثقينَ بنصرِ اللهِ مصطحبينَ مَا استطاعُوا جمعهُ منْ عتادٍ، وقدْ لَا نتصوَّرُ اطمئنانَ هذهِ الفئةِ وهمْ أمامَ جمعٍ غفيرٍ منَ الجنودِ المدجَّجينَ بالسِّلاحِ الذينَ أرادُوا استئصالَ الإسلامَ، لكنَّهُ التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى والثِّقةُ بنصرهِ التِي لَا يوازيهَا شيءٌ.

قالَ تعالَى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ * وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ * إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ}[الأنفال: 9 – 12].

قالَ الزَّجاجُ: أمرُ بدرٍ كانَ مْن أعظمِ الآياتِ؛ لأنَّ عددَ المسلمينَ كانَ قليلًا جدًّا، وكانُوا رجّالةً، فأيدهمُ اللهُ، وكانَ المشركونَ أضعافهمْ، وأمدّهمُ اللّهُ بالملائكةِ[1].

(1) معاني القرآن وإعرابه ٢/٤٠٤.

وقدِ اجتهدَ رسولُ اللهِ ﷺ فِي الاستعدادِ لغزوةِ الأحزابِ، التِي تكالبَ فيهَا المشركونَ واليهودُ علَى المسلمينَ، وكانتْ أعدادهمْ ثلاثةَ أضعافِ عددِ المسلمينَ، لكنَّ هذَا لمْ يفتّ فِي عضدِ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فحفرَ رسولُ اللهِ ﷺ معَ الصَّحابةِ الكرامِ الخندقَ فِي جوٍّ منَ البردِ والجوعِ، لَا يؤازرهمْ سوَى انتصارهمْ لدينِ اللهِ تعالَى.

وقدْ مَنَّ اللهُ عليهمْ بأنْ أرعبَ الأحزابَ وشرَّدهمْ[1].

قال تعالى: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا * وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا}[الأحزاب: 25 – 27].

فاللهُ تعالَى هوَ ناصرُ المؤمنينَ المتوكِّلينَ.

قالَ السَّعدِي: لَا يغالبهُ أحدٌ إلَّا غُلبَ، ولَا يستنصرهُ أحدٌ إلَّا غَلبَ، ولَا يعجزهُ أمرٌ أرادهُ، ولَا ينفعُ أهلَ القوَّةِ والعزَّةِ، قوَّتهمْ وعزَّتهمْ، إنْ لمْ يعنهمْ بقوَّتهِ وعزَّتهِ[2].

---

(1) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٦٧/٢١.

(2) تيسير الكريم الرحمن ٦٦٠/١.

ثالثًا: طلبُ الرِّزقِ:

التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي طلبِ الرِّزقِ سمةُ المؤمنينَ؛ لأنَّ الرِّزقَ مكفولٌ بربوبيَّةِ اللهِ تعالَى للمؤمنِ والكافرِ إنْ عملَ الاثنانِ بالأسبابِ.

يقولُ المولَى عزَّ وجلَّ: {وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[العنكبوت: 60 – 62].

فاللهُ تعالَى يرزقُ بفضلهِ جميعَ عبادهِ، ولَا أدلّ علَى كرمهِ تعالَى منْ امتنانهِ بكنوزِ قارونَ التِي بسطهَا لهُ بسطًا، فلهُ خزائنُ السَّماواتِ والأرضِ، وهوَ الممتنُّ علَى عبادهِ بالطَّعامِ والشَّرابِ والذريَّةِ وكلِّ مَا يملكونَ، وهوَ المتكفِّلُ بأرزاقِ المستقبلِ.

قالَ تعالَى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ}[الذاريات: ٢٢ – ٢٣].

والآيةُ الكريمةُ تلفتُ انتباهَ الإنسانَ إلَى السَّببِ الأهمِّ للرِّزقِ، فالسَّببُ الظَّاهرُ للرِّزقِ هوَ رعايةُ الأرضِ التِي تخرجُ النَّباتَ والثَّرواتِ، لكنَّ المؤمنَ العاقلَ عليهِ أنْ يرفعَ بصرهُ نحوَ السَّماءِ؛ فالسَّببُ الحقيقيُّ للرِّزقِ هوَ اللهُ تعالَى، الذِي يرزقُ عبادهُ بفضلهِ لَا بجهدهمْ، فالأصلُ أنْ يتوكَّلَ الإنسانُ علَى اللهِ تعالَى جازمًا أنَّهُ وحدهُ هوَ المانحُ للأرزاقِ، وأنْ يعملَ بأسبابِ تلكَ الأرزاقِ حتَّى ينالَ رحمةَ اللهِ تعالَى وفضلهِ.

يقولُ سيِّدُ قطبٍ فِي تعليقهِ علَى الآيةِ: والقلبُ المؤمنُ يدركُ هذهِ اللَّفتةَ علَى حقيقتهَا، ويفهمهَا علَى وضعهَا ويعرفُ أنَّ المقصودَ بهَا ليسَ هوَ إهمالُ الأرضِ

وأسبابهَا، فهوَ مكلَّفٌ بالخلافةِ فيهَا وتعميرهَا، إنَّمَا المقصودُ هوَ ألَّا يعلِّقَ نفسهُ بهَا، وألَّا يغفلَ عنِ اللهِ فِي عمارتهَا، ليعملَ فِي الأرضِ وهوَ يتطلَّعُ إلَى السَّماءِ، وليأخذَ بالأسبابِ وهوَ يستيقنُ أنَّهَا ليستْ هيَ التِي ترزقهُ، فرزقهُ مقدَّرٌ فِي السَّماءِ، ومَا وعدهُ اللهُ لَا بدَّ أنْ يكونَ(57).

وقدْ وعدَ اللهُ عزَّ وجلَّ المتوكِّلَ عليهِ بكفايتهِ ورزقهِ، قالَ تعالَى: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[الطلاق: 2 – 3].

وفِي الآياتِ بيانٌ لضرورةِ تقوَى اللهِ فِي أمورِ الطَّلاقِ أوِ الإمساكِ، وحضٌّ علَى التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى؛ لأنَّهُ الرزَّاقُ، ولأنَّ اللهَ تعالَى بالغُ أمرهِ، (سواءً) توكَّلَ الإنسانُ عليهِ أوْ لمْ يتوكَّلْ عليهِ، غيرَ أنَّ المتوكِّلَ يكفَّرُ عنهُ سيِّئاتهِ، ويعظمُ لهُ أجرًا(58)، وقدْ قسّمَ ابنُ عجيبةَ الأسبابَ منْ حيثُ الأخذِ والتَّركِ إلَى ثلاثةِ أسبابٍ:

أوَّلهَا سببٌ معلومٌ قطعًا قدْ أجراهُ اللهُ، وهوَ سنَّةٌ منْ سننِ الدُّنيَا، فهذَا لَا يجوزُ تركهُ، كالأكلِ لرفعِ الجوعِ واللِّباسِ لرفعِ البردِ، والثَّانِي: سببٌ مظنونٌ، كالتِّجارةِ وطلبِ المعاشِ، وشبهِ ذلكَ، فهذَا لَا يقدحُ فعلهُ فِي التوكُّلِ، فإنَّ التوكُّلَ منْ أعمالِ القلوبِ لَا منْ أعمالِ البدنِ، ويجوزُ تركهُ (أي السبب) لمنْ قويَ عليهِ، لكنَّهُ أخذَ بأسبابِ الرِّزقِ وفعلهُ محمودٌ، والثَّالثُ: سببٌ موهومٌ بعيدٌ، فهذَا يقدحُ فعلهُ فِي التوكُّلِ،

(1) في ظلال القرآن ٦/٣٣٨١.

(2) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٤٧.

ثمَّ بيّنَ أنَّ الثَّالثَ مثلَ طلبِ الكيمياءِ والكنوزِ وعلمِ النَّارِ والسِّحرِ، وشبهِ ذلكِ[1]، وأرَى أنَّ طلبَ الكنوزِ بالطُّرقِ المشروعةِ هوَ منَ الأسبابِ منَ القسمِ الثَّاني أيِ السببِ المظنونِ، لأنَّ صاحبهُ تسبَّبَ بالبحثِ والحفرِ وتوكَّلَ علَى اللهِ تعالَى فِي كلِّ ذلكَ، وهذَا الأرجحُ واللهُ أعلمُ.

قالَ الزحيليُّ: ومنْ شروطِ التوكُّلِ الصَّحيحِ: تنفيذُ الأحكامِ الشرعيَّةِ، ومراعاةِ السُّننِ المطلوبةِ فِي الحياةِ، منِ اتِّخاذِ الأسبابِ ثمَّ تفويضِ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى[2].

وقدْ حثَّتِ السنَّةُ النبويَّةُ علَى التوكُّلِ فِي طلبِ الرِّزقِ، فعنْ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: "لوْ أنّكمْ كنتمْ توكّلونَ علَى اللّهِ حقّ توكّلهِ لرزقتمْ كمَا يرزقُ الطّيرَ، تغدُو خماصًا، وتروحُ بطانًا"[3].

---

(1) انظر: البحر المديد ١/٤٢٨

(2) التفسير المنير ٩/٨.

(3) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله ٤/٥٧٣، رقم ٢٣٤٤.

وفِي الآنِ نفسهِ أمرَ المؤمنَ بالأخذِ بأسبابِ الرِّزقِ اقتداءً بأنبياءِ اللهِ الكرامِ، فعنِ المقدامِ رضيَ اللهُ عنهُ، عنْ رسولِ اللهِ ﷺ، قالَ: "مَا أكلَ أحدٌ طعامًا قطُّ، خيرًا منْ أنْ يأكلَ منْ عملِ يدهِ، وإنَّ نبيَّ اللهِ داودَ عليهِ السَّلامُ، كانَ يأكلُ منْ عملِ يدهِ"[1].

أمَّا تركُ الكسبِ والاعتمادِ علَى الخوارقِ والجوائزِ الربَّانيةِ فهذَا سمتُ المتقاعسينَ الذِي ذمّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ فيهِ إبطالًا لقانونِ الأسبابِ والمسبِّباتِ الذِي وضعهُ اللهُ فِي الكونِ، ودعوةً إلَى التكاسلِ والقعودِ ومخالفةً لأمرِ اللهِ تعالَى بإعمارِ الأرضِ بالعملِ.

رابعًا: الدَّعوةُ إلَى اللهِ تعالَى:

الدَّعوةُ مضمارٌ مهمٌّ يخوضهُ المسلمُ بجدٍّ وحبٍّ وإخلاصٍ مقرونٌ بالعلمِ، ولَا يتأتِى لنَا جنيُ ثمراتِ الدَّعوةِ إلَّا بعدَ التوكُّلِ علَى اللهِ عزَّ وجلَّ والثِّقةِ بأنَّهُ تعالَى إنْ شاءَ أجرَى الحجَّةَ علَى لسانِ الدَّاعيةِ وقَلَمِهِ، فجعلَ القلوبَ تنجذبُ إليهِ وتنقادُ إلَى مَا يدعُو إليهِ، وإنْ لمْ يشأْ فلنْ يُكتبُ للدعوةِ نجاحٌ، مهمَا بلغتْ حجَّةُ الدَّاعيةِ، ومهمَا عظمتْ خبرتهُ.

وقدْ خلّدَ التَّاريخُ نماذجَ عديدةً منَ الدُّعاةِ المتوكِّلينَ الذينَ لمْ يعتمدُوا علَى سموِّ الهدفِ وربَّانيَّةِ مصدرِ الرِّسالةِ فحسبُ، بلِ اجتهدُوا وأخذُوا بأسبابِ النَّجاحِ حتَّى تسمُو دعوتهمْ وتنتصرَ فكرتهمْ.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ٣/٥٧، رقم ٢٠٧٢.

قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}[يس: 20 – 26].

ولعلَّ المتأمِّلَ فِي الأسبابِ التِي اتَّخذهَا هذَا الدَّاعيةُ المخلصُ المتوكِّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي دعوتهِ لقومهِ المكذِّبينَ يعلمُ أنَّهُ استحقَّ دخولَ الجنَّةَ بحقٍّ، ومنْ هذهِ الأسبابِ[1]:

السُّرعةُ وعدمُ التباطئِ فِي الدَّعوةِ، فحينمَا استشعرَ حقيقةَ الإيمانِ، تحرَّكتْ هذهِ الحقيقةُ فِي ضميرهِ، فلمْ يتوانَ فِي الإسراعِ منْ أجلِ الدَّعوةِ إليهَا.

حضورهُ منْ أقصَى المدينةِ، وهوَ مكانٌ بعيدٌ، وهذَا يؤكِّدُ إخلاصهُ فِي الدَّعوةِ مَا جعلهُ يحتملُ مشاقَّ الطَّريقِ منْ أجلِ إنجاحِ دعوتهِ.

سعيهُ، والكلمةُ دالَّةٌ علَى إسراعهِ معَ بذلهِ الجهدَ فِي المجيءِ للدَّعوةِ؛ إنقاذًا لهمْ منْ ظلماتِ الكفرِ.

رفقهُ ولينهُ معَ قومهِ، واستعطافهُ لهمْ بقولهِ «يَا قَوْمِ».

لفتهُ أنظارهمْ إلَى ميزاتِ الأنبياءِ منْ حيثُ الاهتداءِ وعدمِ طلبِ المالِ.

(1) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/١٦٣–١٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/٣٦٥.

مخاطبتهُ لنفسهِ منْ منطلقِ إشعارهمْ أنَّهُ يخشَى عليهمْ مَا يخشَى علَى نفسهِ ويحبُّ لهمْ مَا يحبُّ لنفسهِ، واجتهادهُ فِي تغييرِ الأساليبِ لفتًا لانتباههمْ.

تنبيههمْ إلَى أنَّ اللهَ فاطرُ النُّفوسِ وإليهِ المعاذُ، وهوَ الخالقُ الذِي بيدهِ النَّفعُ والضرُّ، وعندهُ الجزاءُ بالثَّوابِ والعقابِ دونَ سواهُ.

تكرارُ الدَّعوةِ وطلبهُ أنْ يهتمّوا بسماعهِ وفهمِ مَا يقولهُ.

تحمُّلِ تعذيبهمْ لهُ مقابلَ إيصالِ الحقِّ ونشرِ دينِ اللهِ، وحرصهِ علَى إعلامهمْ بثوابِ المؤمنِ علَى الرُّغمِ منْ إيذائهمْ لهُ.

قالَ القرطبِي: وفِي هذهِ الآيةِ تنبيهٌ عظيمٌ، ودلالةٌ علَى وجوبِ كظمِ الغيظِ، والحلمِ عنْ أهلِ الجهلِ، والترؤُّفِ علَى منْ أدخلَ نفسهُ فِي غمارِ الأشرارِ وأهلِ البغيِ، والتشمُّرِ فِي تخليصهِ، والتلطُّفِ فِي افتدائهِ، والاشتغالِ بذلكَ عنِ الشماتةِ بهِ والدُّعاءِ عليهِ[1].

ولعلَّ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى هوَ المسهِّلُ الرَّئيسُ للدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، فلوِ استحضرَ الإنسانُ عندَ دعوتهِ مَا قدْ يعودُ عليهِ منْ همومٍ وغمومٍ، وانتقاداتٍ وإعراضٍ، فإنَّهُ سيتركُ أمرَ الدَّعوةِ، لكنَّهُ معَ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى يشعرُ بقوَّةٍ وعزَّةٍ ومناصرةٍ منَ اللهِ تعالَى، فيهونُ عليهِ أمرُ الدَّعوةِ، ومنَ الأمورِ التِي تبعثُ الدَّاعيةَ علَى التوكُّلِ:

- رسوخُ التَّوحيدِ فِي قلبهِ، وإدراكهُ لمعانِي أسماءِ اللهِ وصفاتهِ العلَا، والثِّقةُ بهِ عزَّ وجلَّ.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن ١٧/١٥.

- معرفةُ الدَّاعيةِ إمكاناتِ نفسهِ، وإدراكهُ لضعفهِ وعجزهِ إنْ حُرمَ التَّوفيقَ منَ اللهِ.
- المعرفةُ بفضلِ التوكُّلِ وأحوالِ المتوكِّلينَ منَ السَّلفِ والخلفِ.

وفِي سيرةِ أنبياءِ اللهِ الكرامِ جميعًا، وهمْ أوائلُ الدُّعاةِ إلَى اللهِ تعالَى، نماذجُ عظيمةٌ منَ التوكُّلِ علَى اللهِ فِي الدَّعوةِ، وعلَى رأسهمْ إمامُ المتوكِّلينَ محمَّدٌ ﷺ.

وتأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}[التوبة: 128 – 129].

وقدْ بيّنَ اللهُ تعالَى فضلَ النبيِّ ﷺ، وأنَّهُ جاءَ العربَ منْ جنسهمْ ومنْ نسبهمْ، فهوَ عربيٌّ قرشيٌّ مثلهمْ، يخافُ عليهمْ سوءَ العاقبةِ والوقوعَ فِي العذابِ، حريصٌ ألَّا تفلتَ منهُ أيُّ نفسٍ إلَى النَّارِ، وهوَ رؤوفٌ رحيمٌ بحالهمْ، قيلَ: لمْ يجمعِ اللهُ اسمينِ منْ أسمائهِ لأحدٍ غيرَ رسولِ اللهِ ﷺ فِي قولهِ: (رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) ثمَّ يواسِي اللهُ تعالَى نبيَّهُ الكريمَ ﷺ قائلًا: فإنْ أعرضُوا عنِ الإيمانِ بكَ وناصبوكَ فاستعنْ باللهِ وفوّضْ أمركَ إليهِ، فهوَ كافيكَ معرّتهمْ ولَا يضرُّونكَ، وهوَ ناصركَ عليهمْ، وهكذَا كانَ فعلهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ دومًا، فهوَ الصَّبورُ علَى أذاهمْ، الحريصُ علَى دعوتهمْ، المتوكِّلُ علَى اللهِ تعالَى فِي كلِّ حالٍ(1).

---

(1) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/٣٢٥.

خامسًا: مواجهةُ الظَّالمينَ والمجرمينَ:

يلزمُ علَى المؤمنِ استحضارُ قوَّةِ اللهِ تعالَى ومساندتهِ عندَ مواجهةِ الظَّالمينَ والمجرمينَ، والتوكُّلِ عليهِ تعالَى فِي ذلكَ، فالطَّاقةُ البشريَّةُ قاصرةٌ، سيَّمَا وإنْ كانتْ تتَّجهُ لمحاربةِ الظَّالمينَ، فالظَّالمُ لَا يخشَى اللهَ تعالَى، ولَا يردعهُ شيءٌ، وهوَ مستعدٌّ لبذلِ أرخصِ الوسائلِ وأرذلهَا للحصولِ علَى غرضهِ، وقدْ مرّتْ قصصٌ عبرَ التَّاريخِ تجسِّدُ أدبَ التوكُّلِ علَى اللهِ فِي محاربةِ الظَّلمةِ، منْ ذلكَ قصَّةُ موسَى عليهِ السَّلامُ معَ الطاغيةِ فرعونُ.

تأمَّلْ قولَ اللهِ تعالَى: {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ}[الأعراف: 103 – 107].

إلى قوله تعالى: {قَالُواْ آمَنَّا بِرِبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَن آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلاَفٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُواْ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[الأعراف: 121 – 128].

وفِي الآياتِ الكريمةِ تصويرٌ دقيقٌ لتفكيرِ وسلوكِ الطُّغاةِ، فهمْ يخشونَ الدِّينَ؛ لعلمهمْ أنَّ الأمَّةَ إنِ التزمتْ بهِ ووحدَّتْ خالقهَا ستنصرفُ عنْ تقديسهمْ ورجائهمْ فِي أمورِ حياتهمْ، وستخرجُ منْ ظلماتِ التبعيَّةِ إلَى نورِ التحُّررِ منَ القيودِ البشريَّةِ والانقيادِ للهِ تعالَى وحدهُ دونَ شركاءَ، وهذَا مَا حصلَ عندمَا طلبَ موسَى منْ فرعونَ أنْ يتركَ بنِي إسرائيلَ ليعبدُوا اللهَ وحدهُ، فأدركَ فرعونُ وملؤهُ أنَّ هذَا يعنِي سلبَ السُّلطةِ منهمْ، فأرادُوا إحراجهُ بتقديمِ الحجَّةِ علَى صدقهِ أمامَ النَّاسِ.

وقدْ أظهرَ اللهُ تعالَى علَى يديهِ معجزاتهِ التِي أبهرتْ سحرةَ فرعونَ كلِّهمْ، فآمنُوا، وواجهُوا ذلكَ الطَّاغيةِ المستبدِّ الذِي أرادَ استئصالَ هذَا الدِّينِ وأتباعهِ، وعلَى الرُّغمِ منْ تهديدهِ ووعيدهِ إلَّا أنَّ المؤمنينَ أيقنُوا أنَّ مردَّهمْ إلَى اللهِ تعالَى طالَ عمرهمْ أمْ قصرَ، وأنَّهمْ اختارُوا الموتَ فِي سبيلِ للهِ علَى الموتِ كفَّارًا، وواساهمْ نبيُّهمُ الكريمُ وذكّرهمْ بصفةِ المؤمنِ، وهيَ الاستعانةُ باللهِ الكريمِ، السَّندِ المتينِ لعبادهِ، الذِي يكفيهمْ مَا أهمّهمْ، فليسَ لهمْ غيرَ اللهِ تعالَى، فهوَ الملاذُ الحصينُ، وعليهمْ أنْ يصبرُوا حتَّى يأذنَ الولَى بالنُّصرةِ فِي الوقتِ الذِي يقدِّرهُ بحكمتهِ وعلمهِ، وإنَّ الأرضَ للهِ، ومَا فرعونُ وقومهُ إلَّا نزلاءُ فيهَا، فيجبُ ألَّا يُنظرَ إلَى الطَّاغوتِ أنَّهُ مكينٌ فِي الأرضِ غيرِ مزحزحٍ عنهَا، فصاحبُ الأرضِ ومالكهَا هوَ الذِي يقرِّرُ متَى يطردهمْ منهَا، وإنَّ العاقبةَ للمتَّقينَ حتمًا، فلَا يخالجُ قلوبَ الدَّاعينَ إلَى ربِّ العالمينَ قلقٌ علَى المصيرِ(1).

(1) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١٣٥٥/٣.

هذَا هوَ نبيُّ اللهِ الذِي قالَ عنهُ جلَّ وعلَا: {وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}[يونس: 84].

فهوَ الذِي يذكِّرُ قومهُ دومًا بحقيقةِ الإيمانِ واستلزامهِ للتوكُّلَ علَى اللهِ وحدهُ دونَ سواهُ.

وقدْ واجهَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ أعتَى الظَّالمينَ، فقدْ جسَّدَ النَّمرودُ مثالًا للطَّغيانَ.

يقولُ تعالَى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[البقرة: 258].

فالنَّمرودُ بنُ كنعانَ هوَ أوَّلُ منْ تجبَّرَ فِي الأرضِ وادّعَى الربوبيَّةَ، وكانَ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ قدْ دخلَ بلدتهُ، فأرسلَ إليهِ النَّمرودُ، وقالَ:منْ ربُّكَ؟ ويظهرُ أنَّهُ لمْ يسألْ إبراهيمَ ليعرفَ الجوابَ، بلْ سألهُ استهزاءً، فهوَ يعلمُ أنَّهُ نبيُّ اللهِ تعالَى، وأنَّهُ يدعُو إلَى توحيدِ اللهِ وعدمِ الإشراكِ بهِ، فردَّ عليهِ إبراهيمُ واثقًا متوكِّلًا متسلِّحًا بالإيمانِ والحجَّةِ التِي أجراهَا اللهُ علَى لسانهِ فقالَ: (رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ).

فمَا كانَ منْ تفكيرهِ القاصرِ، وغرورهِ المتغلغلِ فِي أعماقِ نفسهِ إلَّا أنْ يعمدَ إلَى سجنائهِ، فيقتلَ منْ صدرَ بحقِّهِ التخليةُ، ويخلِي منْ صدرَ بحقِّهِ القتلُ، واعتقدَ أنَّهُ بذلكَ قدْ أبطلَ حجَّةَ نبيِّ اللهِ إبراهيمَ، فسألهُ إبراهيمُ حينهَا مَا إنْ كانَ يستطيعُ الإتيانَ بالشَّمسِ منَ المغربِ؛ فاللهُ يأتِي بهَا منَ المشرقِ.

وقدْ ذكرَ الماوردِي أنَّ لتحوُّلِ إبراهيمَ للحجَّةِ الثَّانيةِ دونَ البقاءِ لنصرةِ الحجَّةِ الأولَى احتمالينِ:

أحدهمَا: أنَّهُ قدْ ظهرَ منْ فسادِ قولِ النَّمرودِ مَا لمْ يحتجْ معهُ إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ إلَى النُّصرةِ، ثمَّ أتبعَ ذلكَ بغيرهَا تأكيدًا عليهِ فِي الحجَّةِ.

والاحتمالُ الثَّانِي: أنَّهُ لمّا كانَ فِي تلكِ الحجَّةِ منْ تحايلِ النَّمرودِ بمَا عارضهَا بهِ منَ الشُّبهةِ، أحبَّ أنْ يحتجَّ عليهِ بمَا لَا تحايلَ فيهِ؛ قطعًا لهُ واستظهارًا[1].

هذَا هوَ نبيُّنَا إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ الذِي مَا تركَ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى فِي دعوتهِ.

يقولُ الحقُّ تعالَى داعيًا إلَى التأسِّي بهِ عليهِ السَّلامُ: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[الممتحنة: 4].

---

(1) انظر: النكت والعيون ١/٣٢٩-٣٣٠.

وقد واجه ذو القرنين ظلم يأجوج ومأجوج بالتوكل على الله مع الأخذ بأسباب التوكل واتخاذ عوامل الحيطة منهم.

قال تعالى: " حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيۡنَ ٱلسَّدَّيۡنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوما لَّا يَكَادُونَ يَفقَهُونَ قَولا * قَالُواْ يَٰذَا ٱلقَرنَينِ إِنَّ يَأجُوجَ وَمَأجُوجَ مُفسِدُونَ فِي ٱلأَرضِ فَهَل نَجعَلُ لَكَ خَرجًا عَلَىٰٓ أَن تَجعَلَ بَينَنَا وَبَينَهُم سَدّا * قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَير فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجعَل بَينَكُم وَبَينَهُم رَدمًا * ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَينَ ٱلصَّدَفَينِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارا قَالَ ءَاتُونِي أُفرِغ عَلَيهِ قِطرا * فَمَا ٱسطَٰعُوٓاْ أَن يَظهَرُوهُ وَمَا ٱستَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقبا * قَالَ هَٰذَا رَحمَة مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَاءَ وَعدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّاءَۖ وَكَانَ وَعدُ رَبِّي حَقّا}[الكهف: 93 – 98].

وقدْ وردَ فِي تفسيرِ الآياتِ أنَّ ذِي القرنينِ ملكٌ حكمَ الدُّنيَا بأسرهَا، فاستغاثَ بهِ قومٌ ليحميهمْ منْ يأجوجَ ومأجوجَ، وهمْ جماعةٌ عظيمةٌ منْ نسلِ ولديّ يافثٍ بنِ نوحٍ، اشتهرُوا بالكثرةِ وقدْ هابهمْ أولئكَ القومُ وخشُوا ظلمهمْ، فسألُوا ذَا القرنينِ أنْ يبنيَ لهمْ سدًّا منيعًا يحميهمْ منْ أذَى قومِ يأجوجَ ومأجوجَ مقابلَ خرجٍ منَ المالِ، فمَا كانَ منهُ إلَّا أنْ تواضعَ للهِ ولمْ يغترّ بقوَّته، بلِ اعترفَ بفضلِ اللهِ عليهِ أنْ آتاهُ الصحَّةَ والعافيةَ التِي هيَ خيرٌ منْ أموالهمْ التِي سيجمعونهَا لهُ[1].

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٩٦/٥، فتح القدير، الشوكاني ٤٣٠/٣.

ووافقَ أنْ يبنيَ السدَّ متوكِّلًا علَى اللهِ وحدهُ، وقدْ أخذَ بأسبابِ إنجاحِ مشروعهِ فطلبَ منهمْ إعانتهُ بالرِّجالِ وعملِ الأبدانِ والآلةِ التِي يبنِي بهَا السدَّ، وهذَا بدايةُ النَّجاحِ فِي العملِ، فإنَّ القومَ لوْ جمعُوا لهُ خرجًا، لمْ يعنهُ أحدٌ، ولتركوهُ يبنِي، فكانَ عونهمْ أسرعُ فِي إنجازِ العملِ وإنجاحِ المشروعِ، واستخدمَ الموادَ المناسبةَ لتقويةِ السدِّ، منْ حديدٍ وحرارةٍ ونحاسٍ، وهنَا يتجلّى ظهورُ العملِ المخلصِ، وهوَ أهمُّ مقوّماتِ التوكُّلِ، ثمَّ أقرّ ذُو القرنينِ مرَّةً أخرَى بفضلِ اللهِ عليهِ، وأنَّ بقاءَ السدِّ مرهونٌ بإرادةِ اللهِ تعالَى، وأنَّ المولَى سيشاءُ أنْ يجعلهُ دكاءً فِي وقتٍ يعلمهُ ويقدِّرهُ سبحانهُ[1].

سادسًا: مواجهةُ الشَّيطانِ وأعوانهِ:

يتوجَّبُ علَى المؤمنِ إخلاصُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى فِي مواجهةِ الشَّيطانِ وأعوانهِ، قالَ تعالَى: {إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[المجادلة: 10].

فلولَا التوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى لنْ يكونَ للإنسانِ قدرةٌ فِي مجابهةِ قوَى الشرِّ العظيمةِ التِي يستخدمهَا الشَّيطانُ فِي إغواءِ العبادِ، ففِي الآيةِ الكريمةِ علَى لسانِ إبليسَ لعنهُ اللهُ: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[ص: 82، 83].

---

(1) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/٣٢.

أيْ لأحسِّننَّ لهمْ معاصيكَ، ولأحبِّبنهَا إلَى قلوبهمْ حتَّى يرتكبوهَا، ولأضلّنَّهمْ عنْ سبيلِ الرَّشادِ إلَّا منْ أخلصتهُ بتوفيقكَ فهديتهُ، فإنَّ ذلكَ ممَّنْ لَا سلطانَ لِي عليهِ ولَا طاقةَ لِي بهِ[1].

وكان الرد الإلهي المتحدي: {قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا * وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً}[الإسراء: 63 – 65].

فقدْ أمرهُ اللهُ تعالَى أمرَ إهانةٍ أنْ يبذلَ كلَّ جهدهِ وأنْ يقطعَ منْ يشاءُ عنِ الحقِّ، وأنْ يستخدمَ كلَّ صوتٍ لهُ ولأعوانهِ فِي الوسوسةِ والإبعادِ عنِ الدِّينِ، وأمرهُ أنِ اجمعْ فِي سبيلِ إغوائهمْ خيولكَ ورجالكَ التِي تمشِي فِي الإفسادِ، وشاركهمْ فِي أموالهمْ بأنْ تجعلهمْ ينفقونهَا علَى المعاصِي واجعلْ منْ أولادهمْ بالزِّنَا لكَ نصيبًا، أوْ سيطرْ علَى عقولهمْ فاجعلهمْ يهوّدونَ أبناءهمْ وينصّرونهمْ، ومنِّهمْ بالأمانِي الكاذبةِ أنْ لَا جنَّةَ ولَا نارَ، وأنَّهمْ غيرَ محاسَبينَ علَى مَا يفعلونَ، فعبادُ اللهِ المؤمنونَ لنْ يغترُّوا بكذبكَ، فهمُ المخلصونَ فِي عبادتهمْ، واللهُ كافيهمْ وعاصمهمْ منْ سيطرةِ إبليسَ عليهمْ وهوَ الحافظُ لهمْ منْ كلِّ سوءٍ[2].

(1) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/١٠٣.

(2) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٢٨٨.

وعلَى قدرِ هذَا التحدِّي الكبيرِ يجبُ أنْ يعملَ المؤمنُ لحمايةِ نفسهِ منْ سيطرةِ الشَّيطانِ وأعوانهِ، فهمْ لَا يألونَ جهدًا فِي إسقاطنَا فِي المعصيةِ مهمَا صغرتْ أوْ كبرتْ.

ولنَا فِي قصَّةِ نبيِّ اللهِ يوسفَ عليهِ السَّلامُ نموذجٌ رائعٌ فِي تحدِّي الشَّيطانِ وأعوانهِ، فبالرُّغمِ منْ تعرُّضهِ عليهِ السَّلامُ لضغوطٍ شديدةٍ منْ أجلِ الوقوعِ فِي الرَّذيلةِ، إلَّا أنَّهُ واجههَا بقوَّةٍ نابعةٍ منْ إيمانهِ باللهِ تعالَى، وأعانهُ علَى ذلكَ استعانتهُ باللهِ تعالَى وتوكُّلهُ عليهِ حقَّ التوكُّلِ.

قالَ تعالَى مصوِّرًا لنَا تفاصيلَ القصَّةِ: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[يوسف: 23 – 25].

حتَّى قولهِ عزَّ وجلَّ: {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[يوسف: 33 – 34].

فقدْ عاشَ يوسفُ عليهِ السَّلامِ فِي كنفِ عزيزِ مصرَ، ويوسفُ معترفٌ بفضلهِ وفضلِ زوجهِ عليهِ، وقدْ تعرَّضَ لفتنةِ امرأةِ العزيزِ وهوَ فِي مرحلةِ النُّضجِ والشَّبابِ، ومنْ طلبتْ منهُ الفاحشةَ هيَ صاحبةُ الفضلِ عليهِ وهيَ متزيِّنةٌ متأهِّبةٌ لهُ، وقدْ أوصدتِ

الأبوابَ وأخلتِ الأجواءَ لوقوعِ الجريمةِ، ورغمَ كلِّ هذهِ العواملِ التِي اجتمعتْ علَى نبيِّ اللهِ المعصومِ إلَّا أنَّهُ واجهَ تلكَ المحنةَ بالتعفُّفِ الشَّديدِ عنِ الرذيلةِ[1].

ومنَ الأسبابِ التِي أخذَ بهَا يوسفُ عليهِ السَّلامُ فِي توكُّلهِ علَى اللهِ واستعانتهِ بهِ وحدهِ علَى مواجهةِ الشَّيطانِ:

- استعاذتهُ باللهِ تعالَى عندمَا غلَّقتْ عليهِ الأبوابَ.
- استحضارهُ وتذكيرهُ إيَّاهَا بأنَّ الإحسانَ لَا يردُّ إلَّا بمثلهِ.
- بذلُ الجهدِ واستباقُ البابِ، وعدمُ القعودِ وانتظارِ إجبارهِ علَى ارتكابِ المعصيةِ.
- الرضَا بالمكوثِ فِي السِّجنِ ظلمًا علَى السُّقوطِ فِي الرَّذيلةِ، وهذَا قمَّةُ الاجتهادِ فِي البعدِ عنِ المعصيةِ.
- اللُّجوءُ إلَى اللهِ تعالَى والتوكِّلِ عليهِ والافتقارِ إليهِ وطلبِ العونِ والسَّندِ فِي مجابهةِ المحنةِ.

ولنَا فِي هذهِ القصَّةِ القدوةِ الحسنةِ، فشبابنَا وبناتنَا الآنَ يتعرَّضونَ لمحنٍ كثيرةٍ تتعلَّقُ بالعفَّةِ، فنجدهمْ يستسلمونَ للشَّيطانِ ويسمحونَ لهُ بأنْ يتحكَّمَ فِي عقولهمْ ويزيِّنُ لهمُ المنكرَ، علَى أنَّهُ علاقةٌ اعتياديةٌ أوْ علاقةٌ مبدئيَّةٌ لحصولِ الزَّواجِ،

(1) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/١٠٨.

وكذلكَ يتدخَّلُ الشَّيطانُ فِي كلِّ أمورِ حياتنَا، فهوَ الذِي يوسوسُ للسَّارقِ أنْ يستكثرَ منْ مالهِ، وللأبناءِ أنْ يتركُوا برَّ آبائهمْ، وللآباءِ أنْ يقصِّرُوا فِي حقِّ أبنائهمْ وللطُّغاةِ أنَّهمْ علَى حقٍّ ليستمرُّوا فِي طغيانهمْ.

وليسَ للمؤمنِ للخروجِ منْ هذهِ الابتلاءاتِ إلَّا أنْ يتوكَّلَ علَى اللهِ تعالَى، ويثقَ بهِ فِي تصريفِ أمورهِ، معَ الأخذِ بالأسبابِ المعينةِ علَى مواجهةِ الشَّيطانِ، ومنْ ذلكَ:

- إخلاصُ العملِ للهِ تعالَى، واستحضارُ عظمتهِ ومراقبتهِ عزَّ وجلَّ فِي كلِّ الأوقاتِ.
- الاستكثارُ منْ أعمالِ الخيرِ واستغلالِ الوقتِ فِي ذلكَ؛ فهيَ معينةٌ علَى سدِّ مداخلِ الشَّيطانِ.
- الاستعاذةُ والدُّعاءُ والتزامُ الذِّكرِ وقراءةِ القرآنِ لتحصينِ النَّفسِ منَ الشَّيطانِ وأعوانهِ.
- الابتعادُ عنْ أعوانِ الشَّيطانِ منَ السَّحرةِ والكهَّانِ والعرَّافينَ والقائلينَ بالأبراجِ الفلكيَّةِ ومَا إلَى ذلكَ.
- الاستعانةُ بالصُّحبةِ الصَّالحةِ المعينةِ علَى تقوَى اللهِ تعالَى.

{ثمراتُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى}

للآدابِ الربَّانيَّةِ آثارٌ يشاءُ اللهُ تعالَى أنْ تظهرَ عاجلًا، فيرَى المؤمنُ المتحلِّي بهَا أثرهَا فِي حياتهِ وفِي نظرةِ النَّاسِ إليهِ، ثمَّ يكرمهُ اللهُ بهَا فِي الآخرةِ فيعطيهِ جزاءهُ الأمثلَ، وللتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى ثمراتٌ عاجلةٌ وآجلةٌ:

أوَّلًا: ثمراتُ التوكُّلِ فِي الدُّنيَا:

1) محبَّةُ اللهِ تعالَى للمتوكِّلينَ:

تأكَّدَ فِي القرآنِ الكريمِ حبَّ اللهِ عزَّ وجلَّ للمتوكِّلينَ، قالَ تعالَى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[آل عمران: 109].

فقدْ دعَا ربُّ العزَّةِ نبيَّهُ الكريمَ ﷺ إلَى مشاورةِ المؤمنينَ فِي أمورهِ، ثمَّ قالَ لهُ: إذَا اطمأنّ قلبكَ لمَا اخترتَ ففوّضْ أمركَ إلَى اللهِ واعتمدْ عليهِ، وامضِ بجوارحكَ، فاللهُ يحبُّ المتوكِّلينَ، ومحبَّتهُ تعالَى هيَ أعظمُ محبَّةٍ وهيَ التِي تجلبُ النُّصرةَ والهدايةَ والتَّوفيقَ[1].

ويمتنّ اللهُ تعالَى علَى منْ يحبُّ منْ عبادهِ بأنْ يجعلَ لهُ حبًّا فِي قلوبِ النَّاسِ.

قالَ تعالَى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا}[مريم: 96].

والمعنى: إنَّ الذينَ صدقُوا اللهَ ورسولهُ، وعملُوا بمَا أمرهمْ منْ آدابٍ وشيمٍ (ومنْ أجلّ تلكَ الآدابِ التوكُّلُ) سيوقعُ اللهُ محبَّتهمْ وألفتهمْ فِي صدورِ عبادهِ[2].

وذكرَ أنَّ اللهَ تعالَى سيحدثُ لهمْ فِي القلوبِ مودَّةً منْ غيرِ تودُّدٍ منهمْ، يحبُّهمُ النَّاسُ، ويتحابُّونَ فيمَا بينهمْ، ويحبُّهمُ اللّهُ تعالَى ويرضَى عنهمْ[3].

---

(1) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/١٢٣، السراج المنير، الخطيب الشربيني ١/٢٦٠.

(2) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/٤٦٠٠.

(3) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/١٦٩.

وفِي الحديثِ عنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّ اللهَ تباركَ وتعالَى إذَا أحبَّ عبدًا نادَى جبريلَ: إنَّ اللهَ قدْ أحبّ فلانًا فأحبّهُ، فيحبُّهُ جبريلُ ثمَّ ينادِي جبريلُ فِي السَّماءِ: إنَّ اللهَ قدْ أحبّ فلانًا فأحبّوهُ، فيحبُّهُ أهلُ السَّماءِ ويوضعُ لهُ القبولُ فِي أهلِ الأرضِ(1).

2) كفايةُ اللهِ للمتوكِّلينَ:

وعدَ اللهُ عزَّ وجلَّ عبادهُ المتوكِّلينَ عليهِ بالكفايةِ.

قالَ تعالَى: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ}[الطلاق: 3].

فقدْ قضَى اللهُ عزَّ وجلَّ علَى نفسهِ كفايةَ المتوكِّلينَ، فهوَ سبحانهُ الذِي يكفيهمْ مَا أهمّهمْ فِي دينهمْ ودنياهمْ، وهوَ الضَّامنُ لهمْ الرِّزقَ، الحافظُ لهُ منْ كلِّ مَا يخشونَ(2).

قالَ الرَّبيعُ بنُ خثيمَ يبيّنُ معنَى (فَهُوَ حَسْبُهُ): منْ كلِّ مَا ضاقَ علَى النَّاسِ(3).

وقدْ دعَا المؤمنونَ اللهَ تعالَى باسمهِ الوكيلِ كيْ يحميهمْ ويمنعَ عنهمْ كيدَ الكائدينَ.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ١٤٢/٩، رقم ٧٤٨٥.

(2) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣٣٨/٩.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ٩٩/٨.

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُ: حسبنَا اللهُ ونعمَ الوكيلُ، قالهَا إبراهيمُ عليهِ السَّلامُ حينَ ألقيَ فِي النَّارِ، وقالهَا محمَّدٌ ﷺ حينَ قالُوا: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ}[آل عمران: 173][1].

أي: اللهُ ربُّنَا، وهوَ كافينَا كلَّ مَا أهمَّنَا وهوَ المفوَّضُ إليهِ تدبيرُ عبادهِ، والقائمِ بمصالحهِمْ[2].

3) النَّجاةُ منَ الخذلانِ:

النَّصرُ والنَّجاةُ منَ الخذلانِ هيَ مكافأةُ اللهِ تعالَى للمتوكِّلينَ عليهِ.

قالَ تعالَى: {إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[آل عمران: 160].

فَنَصْرُ اللهُ تعالَى هوَ النَّصرُ الحقيقيُّ، وخذلانهُ للعبدِ بتركهِ نصرتهِ ومساندتهِ هوَ الخذلانُ الحقيقيُّ، فمهمَا بلغتْ مناصرةُ البشرِ فهيَ ليستْ بشيءٍ أمامَ مناصرةِ ربَّ البشرِ، ومنْ ناصرهُ اللهُ تعالَى فلنْ يضرَّهُ خذلانُ الخاذلينَ، ولنْ يضيرهُ تقاعسُ المتقاعسينَ، قالَ ابنُ القيِّمِ: هوَ حسبُ منْ توكَّلَ عليهِ، وكافِي منْ لجأَ إليهِ، وهوَ الذِي يؤمِّنُ الخائفَ ويجيرُ المستجيرَ، فمنْ تولَّاهُ واستنصرَ بهِ وتوكَّلَ عليهِ وانقطعَ بكليّتهِ إليهِ؛ تولَّاهُ وحفظهُ وحرسهُ وصانهُ، ومنْ خافهُ واتَّقاهُ أمّنهُ ممَّا يخافُ ويحذرُ، وجلبَ إليهِ مَا يحتاجُ إليهِ منَ المنافعِ[3].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، ٣٩/٦، رقم ٤٥٦٣.

(2) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٧.

(3) بدائع الفوائد ٢٣٧/٢.

4) النَّجاةُ منْ كيدِ الشَّيطانِ:

قالَ تعالَى: {وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا}[الإسراء: 64، 65].

فقدْ تحدَّى اللهُ تعالَى الشَّيطانَ أنْ يبذلَ كلَّ جهدهِ وأنْ يقطعَ منْ يشاءُ عنِ الحقِّ، وأنْ يستخدمَ كلَّ صوتٍ لهُ ولأعوانهِ فِي الوسوسةِ والإبعادِ عنِ الدِّين، وأنْ يبذلَ فِي سبيلِ ذلكَ كلَّ الوسائلِ المادِّيةِ المتاحةِ لهُ، ووعدَ عزَّ وجلَّ عبادهُ ألَّا يجعلَ للشَّيطانِ سلطانًا عليهمْ، وأنَّهُ تعالَى سيكفيهمْ ويعصمهمْ منْ إغوائهِ وكيدهِ[1]، وهوَ تعالَى القائلُ فِي محكمِ كتابهِ: {وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[المجادلة: 10].

فالمؤمنُ لَا يضرُّهُ التآمرُ منْ أيِّ كائنٍ كانَ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى حافظهُ، يقولُ سيِّدُ قطبٍ: فهوَ الحارسُ الحامِي، وهوَ القويُّ العزيزُ، وهوَ العليمُ الخبيرُ، وهوَ الشَّاهدُ الحاضرُ الذِي لَا يغيبُ، ولَا يكونُ فِي الكونِ إلَّا مَا يريدُ، وقدْ وعدَ بحراسةِ المؤمنينَ، فأيُّ طمأنينةٍ بعدَ هذَا وأيُّ يقينٍ؟[2].

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/٢٨٨.

(2) في ظلال القرآن ٦/٣٥١٠.

5) النَّجاةُ منَ الكرباتِ:

ومنَ النَّماذجِ التِي تبيّنُ نجاةَ المؤمنينَ المتوكِّلينَ بفضلِ اللهِ تعالَى قصَّةُ أصحابِ الكهفِ، فقدْ فرّوا منْ ملكهمْ وقومهمْ الكافرينَ ولجؤُوا إلَى حمايةِ اللهِ تعالَى.

قالَ تعالَى: {إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا}[الكهف: 10، 11].

فقدْ أوَى أولئكَ الفتيةُ إلَى الكهفِ خائفينَ لعلّهمْ يستترونَ عنِ الأنظارِ فلَا يراهمْ أحدٌ منْ قومهمْ، وهذَا أخذٌ بالأسبابِ، فلمْ يكتفُوا بالدُّعاءِ والمكوثِ بينَ الظَّلمةِ، بلْ تركُوا المكانَ، وذادُوا بدينهمْ إلَى مكانٍ أمينٍ، ثمَّ فوّضُوا أمرهمْ إلَى ربِّهمْ، فضربَ اللهُ تعالَى علَى آذانهمْ حجابًا يمنعهمْ منْ سماعِ الأصواتِ والحركاتِ، فنامُوا فِي كهفهمْ ثلاثمائةَ وتسعَ سنينَ، وكانُوا يتقلَّبونَ بلطفِ اللهِ تعالَى وتدبيرهِ منْ جنبٍ إلَى جنبٍ، حتَّى بعثهمْ منْ نومهمْ وكانتْ قريتهمْ وقتئذٍ قدْ آمنتْ ولمْ يعدْ فيهَا ملكٌ ظالمٌ، وهذَا تفريجُ اللهِ تعالَى لكربتهمْ واستجابتهُ لتضرِّعهمْ[1].

---

(1) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٣/٢٣٨.

وقدْ بيّنَ سيِّدُ قطبٍ أنَّ قلوبَ هؤلاءِ الفتيةِ مؤمنةٍ ثابتةٌ راسخةٌ، متوكِّلةٌ مطمئنَّةٌ إلَى الحقِّ الذِي عرفتْ، معتزَّةً بالإيمانِ الذِي اختارتْ، وقدْ استحقَّتْ بذلكَ رحمةَ اللهِ تعالَى(1).

ومنْ أروعِ الأمثلةِ علَى تفريجِ الكرباتِ، مَا حدثَ أثناءَ هجرةِ نبيِّنَا الكريمِ ﷺ وأبي بكرٍ الصدِّيقِ رضيَ اللهُ عنهُ.

قالَ اللهُ تعالَى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[التوبة: 40].

فقدْ خرجَ رسولنَا ﷺ إلَى المدينةِ بعدَ إيذاءِ المشركينَ وتآمرهِمْ علَى قتلهِ، وليسَ لديهِ قوَّةٌ تكفِي لمقاومتهِمْ ومدافعتهِمْ، والعربُ كلُّهمْ ضدَّهُ، وكانَ معهُ صاحبهُ أبُو بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، فكانَ المقامُ مقامَ أدبِ التوكُّلِ الكاملِ(2).

وقدْ لجآ إلَى الغارِ، فأقامَا فيهِ ثلاثةَ أيَّامٍ ليسكنَ الطلبُ عنهمَا، وذلكَ لأنَّ المشركينَ حينَ فقدوهمَا ذهبُوا فِي طلبهمَا كلَّ مذهبٍ منْ سائرِ الجهاتِ، وجعلُوا لمنْ ردَّهمَا أوْ أحدهمَا مائةً منَ الإبلِ، واقتصُّوا آثارهمَا حتَّى اختلَطَ عليهِمْ، واحتارُوا فِي مكانهمَا، فصعدُوا الجبلَ الذِي همَا فيهِ، وجعلُوا يمرُّونَ

(1) انظر: في ظلال القرآن ٤/٢٢٦١.

(2) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/١٧٥.

علَى بابِ الغارِ، فتحاذي أرجلهمْ بابَ الغارِ ولَا يرونهمَا، حفظًا منَ اللهِ لهمَا[1].

وقدْ كانَ رسولُ اللهِ ﷺ متأدِّبًا بالثِّقةِ فِي نصرِ اللهِ تعالَى، فنصرهُ اللهُ وأعلَى قدرهُ، ومكّنَ دينهُ فِي سائرِ أنحاءِ الأرضِ، واللهُ عزيزٌ فِي انتقامهِ وانتصارهِ، منيعُ الجنابِ، لَا يضامُ منْ لاذَ ببابهِ واحتمَى بالتمسُّكِ بخطابهِ، حكيمٌ فِي أقوالهِ وأفعالهِ[2].

ثانيًا: ثمراتُ التوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى فِي الآخرةِ:

1) النَّجاةُ منَ العذابِ:

النَّجاةُ منَ العذابِ هيَ مطلبُ كلِّ مؤمنٍ، وهيَ الحقُّ الذِي وعدَ اللهُ بهِ عبادهُ المخلصينَ.

قالَ تعالَى: {ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ}[يونس: 103].

فالمؤمنُ المتّبعُ لرسلِ اللهِ عليهمُ السَّلامُ، المخلصُ المتقِّي الشَّاكرُ المتوكِّلُ يستحقُّ الرَّحمةَ منَ العذابِ[3].

---

(1) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/٢٢٣.
(2) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/١٥٥.
(3) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/٢١٤.

ويذكرُ السَّعدِي أنَّ تلكَ النَّجاةَ تثبتُ للمؤمنينَ فِي الدُّنيَا والآخرةِ علَى السَّواءِ، وهذَا منْ قبيلِ دفاعِ اللهِ تعالَى عنِ المؤمنينَ الذِي وردَ فِي قولهِ تعالَى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا}[الحج: 38].

وأوضحَ أنَّهُ علَى قدرِ مَا يتحلَّى المرءُ بالآدابِ، تحصلُ لهُ النَّجاةُ منَ المكارهِ(1).

ومنْ نماذجِ نجاةِ المؤمنينَ منَ العذابِ، نجاةُ سيِّدنَا هودٍ ومنْ آمنَ معهُ.

قالَ تعالَى: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ}[هود: 58].

وذكرَ ابنُ عجيبةَ أنَّ ذكرَ النَّجاةِ تكرَّرَ فِي هذهِ الآيةِ مرَّتينِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى عنَى بالأولَى تنجيتهمْ منْ عذابِ ريحِ السَّمومِ الذِي أصابَ قومهمْ، والتَّنجيةُ الأخرَى منَ العذابِ الغليظِ، قصدَ بهَا نجاتهمْ منَ النَّارِ يومَ القيامةِ(2).

وذكرَ اللهُ تعالَى نجاةَ قومِ صالحٍ عليهِ السَّلامُ فِي قولهِ تعالَى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[هود: 66].

وذكرَ القشيريُّ أنَّ ربَّ العزَّةِ قدْ أجرَى علَى المكذِّبينَ مَا توعَّدهمْ بهِ منْ عذابٍ غيرِ مكذوبٍ، ونجّى نبيّهمْ المتوكِّلِ عليهِ السَّلامُ، ونجّى منِ اتّبعهُ منْ كلِّ عقوبةٍ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، سنّةً منهُ سبحانهُ فِي تنجيةِ أوليائهِ أمضاهَا، وعادةً فِي تلطُّفهِ ورحمتهِ بالمستحقِّينَ أجراهَا(3).

---

(1) انظر: تيسير الكريم الرحمن ١/٤٨٨.

(2) انظر: البحر المديد ٣/٣٠٤.

(3) انظر: لطائف الإشارات ٢/١٤٥.

2) دخولُ الجنَّةِ:

الجنَّةُ هيَ أسمَى غاياتِ المؤمنِ، وأرجَى آمالهِ، وغايةُ عملهِ وعبادتهِ.

قالَ تعالَى واعدًا عبادهُ المتوكِّلينَ الصَّابرينَ بالخلودِ فِي النَّعيمِ المقيمِ: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات لَنُبَوِّئَنَّهُمْ منَ الْجَنَّة غُرَفًا تَجْري منْ تَحْتهَا الْأَنْهارُ خالدينَ فيها نعْمَ أَجْرُ الْعاملينَ * الَّذينَ صَبَرُوا وَعَلى رَبّهمْ يَتَوَكَّلُونَ}[العنكبوت: 58، 59].

فهذَا وعدُ اللهِ تعالَى للمؤمنينَ المتوكِّلينَ بإسكانهمْ منازلَ عاليةٍ فِي الجنَّةِ، تجرِي منْ تحتِ أشجارهَا الأنهارُ، علَى اختلافِ أصنافهَا، منْ ماءٍ وخمرٍ وعسلٍ ولبنٍ، ماكثينَ فيهَا أبدًا، لَا يبغونَ عنهَا حولًا، جزاءً لهمْ علَى أعمالهمْ، وأنعمْ بهِ منْ جزاءٍ[1].

قالَ تعالَى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[الشورى: 36].

حيثُ يكونُ ثوابُ اللهِ نعيمًا لَا يفنَى، ورزقًا لَا ينفدُ، وهذَا الجزاءُ للَّذينَ آمنُوا، وتوكَّلُوا علَى ربِّهمْ، وأسلمُوا أمرهمْ لهُ، فثوابُ اللهِ تعالَى خيرٌ فِي طبيعتهِ، أبقَى فِي مدَّتهِ منْ أيِّ ثوابٍ[2].

وفِي الحديثِ عنِ ابنِ عباسٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: "يدخلُ الجنَّةَ منْ أمَّتِي سبعونَ ألفًا بغيرِ حسابٍ ... همُ الذينَ لَا يسترقونَ، ولَا يتطيَّرونَ، وعلَى ربِّهمْ يتوكَّلونَ"[3].

---

(1) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٥/٢١.

(2) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢٧٠٥/٥.

(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ١٠٠/٨، رقم٦٤٧٢.

هذا وبالله التوفيق وصلى الله على نبيِّنا

محمد وعلى آله وصحبه

وسلم